المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

جلال آل أحمد

نون والقلم

الطبعة الثانية

ترجمة: ماجدة العناني

مراجعة: ابراهيم الدسوقي شتا

نون والقلم

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٧/ ٢
- نون والقلم
- جلال آل أحمد
- ماجدة العنانى
- إبراهيم الدسوقى شتا
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

نون والقلم

نويسنده: جلال آل أحمد

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ .

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

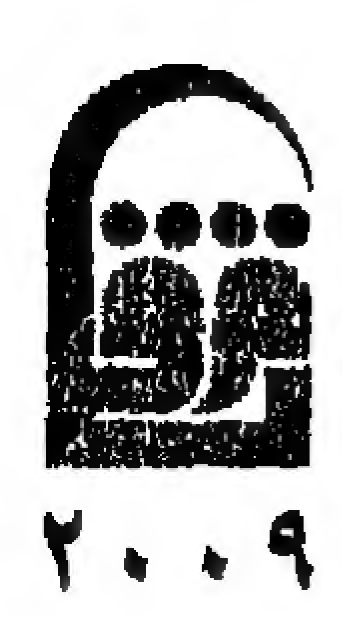
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

نون والقلم

تأليف: جلال آل أحمد

ترجمة: ماجدة العناني

مراجعة: إبراهيم الدسوقي شتا



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩ / ١١٠٢٣
الترقيم الدولى: 4 - 338 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

إهـــداء

إلى إبراهيـــم الدسوقى شتـــــا

الأستاذ والزوج والحبيب والصديق

مــاجــدة

مقدمـــــة

كان أول ما التقيت بهذه الروايـــة العجيبة الغريبة " نون والقلم " فى ذلك العرض الشيق الذى قدمه إبراهيم الدسوقى شتـــا فى كتابه "مطالعات فى الرواية الفارسيـــة المعاصـــرة" [(١)] ، وشددت إلى الرواية بشكل عجيب ، وسرعان ما اقتنيتها وقرأتها كاملة وزاد إعجابى بها ، وصح عزمى على نقلها إلى اللغة العربيـــة وبخاصة أن جلال آل أحمد برغم ريادته فى الفكر والأدب ، وبرغم الدور العظيم الذى أداه فى المحيطين الفكرى والأدبى ، إلا أنه لم ينقل إلى اللغة العربية ، ولولا العرض الذى ورد فى كتاب مطالعات فى الرواية الذى سلف ذكره ، ثم الفصل الذى كتبه عنه حسن كامشاد فى كتابه " النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر" والذى ترجمه ابراهيم الدسوقى شتا أيضا عن الإنجليزية [(٢)] ، لما عرف قراء العربية شيئـــا عن الكاتب ، برغم أنه معروف على المستوى العالمى بعد ترجمة كتابه الخطير " الابتلاء بالتغرب "[(٣)] إلى اللغة الإنجليزيـــة ، وترجمة روايته " ناظر المدرسة " [(٤)] إلى الإنجليزيـــة أيضـــا ، كما ترجم له العديد من القصص القصير .

---

(١) إبراهيم الدسوقى شتـــا : مطالعات فى الرواية الفارسية المعاصرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٦– صص : ١٦٨ – ١٩٢ .

(٢) حسن كمشاد : النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصـــر : ترجمة إبراهيم الدسوقى شتا– الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٢– صص ١٩١– ١٩٤ .

(٣) " غرب زدكى" وله ترجمة إلى العربية لابراهيم الدسوقى شتـــا المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩ .

(٤) مدير مدرســـــه وللرواية ترجمة عربية قام بها الزميل الدكتور عادل عبد المنعم وراجعها الدكتور محمد السعيد عبد المؤمن ولم تنشـــر بعد .

ولد جلال آل أحمد فى طهران سنة ١٩٢٣ لأسرة محافظة ينتمى معظم رجالها إلى الهيئة الدينيـــة ، ومع ذلك كان آل أحمد من أوائل المثقفين الذين انضموا إلى حزب توده " الحزب الشيوعى الإيرانى " عند إعادة تأسيســـه بعد دخول الحلفاء إيران ، وإلى تأثره بمبادىء الحزب ترجع الخلفـيـة الفكرية لمعظم إنتـاجـه الأدبى الأول والذى يتـمـثل فى مجموعاته القصصيــة " ديد وباز ديد= تبادل الزيارات " (١٩٤٥) و " از رنج كه ميبريم = من الألم الذى نعانى " (١٩٤٧) و " ستار= السنتور " (١٩٤٨) و" زن زيادى = امـرأة فوق العـدد" (١٩٥٢) وتدور موضـوعات قصص هذه المجموعات حول نقد الخرافات التى تروج باسم الدين مع شعور بالتعـاطف مع الشـعب الذى يعانى من القهـر السياسـى والظلم الإجتماعى .

وبعد سقوط مصدق وافتضـاح توده انشق عنه جلال آل احمد ، كمـا صمت فـترة عن الإنتـاج الأدبى مـلأها بالاهتمـام بجـمـع المأثور الشـعبى والخوض فى استـخـراج الدفين من خصـائص البنية الثقـافيـة لشعبه والتى لم يفقد يوما الإهتمام بهـــا ، وكان من نتاج هذه الفترة دراساته الثلاثة التى لقيت شهرة عالمية عند المهتمين بالمأثور الشعبى والأنثـربولوجـيـا " " اورازان = اسم منطقــة فى الطالقـــان الأعلى "(١٩٥٣) و " تات نشينهاى بلوك زهرا = قبائل التات فى منطقة الزهراء " (١٩٥٩) و" درهء يتـيـمـهء خليج جـزيرهء خـارك = جـزيرة خـارك درة الخليج اليتيمة " (١٩٦٠) . وكان من نتاج هذه الفترة أن اكتشف جلال آل احمد أن البنية الحقيقية للشعب الإيرانى بنيـــة دينيـــة ، فعاد إلى الدين لكن كمعتزلى حر ثائر على كثير من الممارسات التى تجرى

فى إيران باسم الدين وباسم المذهب الشيعى ، وتعبر مرحلة إبداع الستينيات عن أفكار شديدة الجدة على المستويين الإبداعى والفكرى : كان من نتاجها على المستوى الفكرى كتبه " الابتلاء بالتغرب " و رحلته إلى الحج التى نشرها تحت عنوان " خسى درميقات = قذى فى الميقات " و " خدمت وخيانت روشنفكران = المفكرون بين الخدمة والخيانة " ويضيق بنا المجال عن الحديث عن تأثيره فى الجيل الأحدث من مفكرى إيران الذين مارسوا الكتابة وعلى الخصوص على شريعتى وصمد بهرنجى أما على المستوى الإبداعى فكان من أهم نتاجها : رواية نون والقلم وخطها العام كما سنرى رفض التجديد باسم الدين وما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج وخيمة ، ورواية " نفرين زمين = لعنة الأرض " عن صدى الإصلاح الزراعى الشاهنشاهى فى ثورة الشاه البيضاء (١٩٦١) فى ريف إيران .[١]

وفضلا عن ذلك كان جلال آل أحمد مترجما مبدعا عن اللغات الأوربية ترجم المقامر لديستيوفسكى والغريب وسوء تفاهم لألبير كامو والأيدى القذرة لجان بول سارتر ورحلة الاتحاد السوفيتى والأغذية الأرضية لأندريه جيد والخرتيت لأوجين يونسكو وكلها عن الفرنسية .

---

(١) لم أفصل فى الحديث عن الرواية والإنتاج الأدبى لجلال آل أحمد فقد ذكرته فى بحثى المطول " جلال آل أحمد وروايته نون والقلم " المنشور فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - جـ ٥٧ ، العدد ٣ ، ١٩٩٧ ، كما لم أفصل الحديث عن تطوره الفكرى لأنه مبسوط فى مقدمة الترجمة العربية لكتاب " الابتلاء بالتغرب " لإبراهيم الدسوقى شتا المجلس الأعلى للثقافة .

نفى جلال آل أحمد إلى قرية أسالم فى الشمال الإيرانى . وتوفى فى كوخ له فيها وفاة مشكوكا فى أمرها فى غروب السابع عشر من شهريور سنة ١٣٤٨ هـ. ش. (١٩٦٩).

وإنى لأرجو بتقديمي للترجمة العربية لهذه الرواية أن أكون قد أضفت إلى اللغة العربية نصا جديرا بالإضافة يثريها ويغنيها ، كما لا يفوتنى أن أشكر أستاذى وزوجى الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا على تشجيعه إياى على الترجمة ، ومراجعته لها ، والله من وراء القصد .

دكتورة **ماجدة محمد على العنانى**

المدرس بكلية الآداب - جامعة حلوان

"... وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون "

سورة القلم

(١)

قبل المدخل

كان يا ما كان ، وما ثم إلا اللــــه . كان هناك أحد الرعيان يملك قطيعا من الماعز ، وكان أقرع دائما ما يضـــع على رأسه جلد قربة حتى لا يضايقـــه الذباب . وشاء القضاء أنه بينما كان صاحبنا الراعي يطوف بقطيعـه في الخـلاء أن رأى ازدحـامـا لا يوصف . كـان الناس جميعا قد تقاطروا خارج المدينة ، وكانوا يرفعون الأعلام والبيارق ناحية الخندق ، ويلوحون بها مهللين هاتفين : يا قدوس يا قدوس، وهم يرفعون رؤوسهم وعيونهم متجهة إلى السماء ، ووضع صاحبنا الراعي قطيعه في الأماكن الخفية والمخابيء الموجودة على حافة جدول ماء أسفل شجرة التوت ، وأمر كلبه بحراسته وذهب يتشمم الأخبار ، ووجه وجهه إلى السماء لكنه لم ير شيئـــا ، إلا أنهم كانوا قد نصبوا المرايا أعلى برج المدينة وحصنها وأعلى بواباتها كما علقوا السجاجيد . وكانت نقطة قرع الطبول الملكية تقرع الطبول داخل مركز حراسة البوابة الكبيرة وتنفخ في الأبواق حتى أصمت آذان الفلك . وأخذ صاحبنا السيد الراعي يحجل ببطء وسط الجميع ، لكنه لم يكن قد وجد الفرصة بعد ليسأل ويتقصى الأخبار من أحد ، حتى ظهر فجأة عقاب من طيور الصيد المدربة ، ومر مثل السهم النافذ وحط على رأســـه ، وكان من تلك الطيور التي تحمل

جديا في الهواء ، وما إن أفاق السيد الراعي ليفهم ما حدث حتى تقاطر الناس من حوله ورفعوه وحملوه مهللين زاعقين بالصلوات " على النبي وآله " والدعوات . إلى أين ؟ الله أعلم . ومهما قاوم ، ومهما صرخ ، لم يكن ذلك ليجدى فتيلا في الناس ، وكأنه لم يحدث شيء . أخذ يحدث نفسه : يا الله أى ذنب ارتكبته ؟ أية بلايا يريدون انزالها برأسي؟ الشكر لله أن خلصني من شر هذا الطائر الملعون .. ووامصيبتاه إن كان قد جاء ليخرج عيني... " وظل يتحدث هكذا إلى نفسه.، بينما أخذ الناس يتناقلونه من يد إلى يد حتى وصلوا به إلى خيمة الملك وأدخلوه إياها . وخوفا على روحه ، قام السيد الراعي بأداء التحية مرتين أو ثلاثة من تلك التحيات الفخمة الضخمة ذات الإنحناء ، وما إن بدأ بقول " جعلت فداؤك " ، حتى نفخ الملك وتأفف ، وبإشارة من يده أفهمهم أن يحملوه إلى الحمام ، ويلبسوه ثيابا جديدة ويعيدوه إليه .

وكان صاحبنا السيد الراعي قد ظل مندهشا مضطربا بشكل سيىء، كما كان قلبه قلقا على قطيعه . وعندما أوشك ثانية أن يفهم ما حدث ، حتى صبوا على رأسه ثلاث جرات من الماء المغلي ، ووقع فيه مدلك فحل . ولا شك أن هذا الموضع من المسألة حسن جدا . ولم يكن صاحبنا السيد الراعي قد رأى حماما قط منذ سنوات ، ومما لا شك فيه أنه كان إذا مر على جدول ماء ، فقد كان يرش جسده بالماء مرة في الشهر أو في السنة ، لكنه لا يتذكر سوى ليلة عرسه أنه ذهب إلى الحمام ودلك ، فكان أن استسلم ، وخلع جلد القربة عن رأسه وطواه ووضعه جانبا ، وأخذ يستطلع بواطن الأمر خطوة بخطوة من المدلك

الذى لم يكن قد رأى رأســـا كهذى من قبل وأصابه الذهول . وكان أصل الحكاية أنه في الأسبوع السابق كانوا قد صبوا الرصاص المغلي في حلق وزير ميمنة الملك ، وأرسلوا روحه إلى بارئها ، وعلى هذا النسق كانوا ينصبـــون خليفة له .

وعندما اطمأن بال أخينــــا الراعي بدأ يبوح بمكنونات قلبه للمدلك ، وإلى أن انتهى أمر الغسل والتدليك ، حتى أحضروا شال الوزارة وجبتها ليلبسوه إياهما ، وتعلم دقائق صنعة الوزارة من المدلك ، و حيفظ كل ما يتصل ب " جعلت فداءك " و" سلم قبلة العالم " ، وكل ما كان قد سمعه من آداب العظماء ، كما أن المدلك لم يقصــــر ، وبقدر ما يستطيع دلك خاصرته بالماء الساخن حتى تلين عظامه ويستطيع أن ينحنى ويستقيم كما ينبغي . وعندما انتهى أمر الحمام ، سلم أمره لله ودخل في جبة الوزارة .

لكن لأن صاحبنا الراعي كان أساسا من أهل الجبل وسفحه ، ولم يكن من أهل مثل هذه الولايات والمدن التي تحتوى على هذا النوع من العظماء ، وعلى ملك ووزراء ، ولأنه كان في الأصل رجلا بسيطا ساذجا ، فقد طرأت برأسه فكرة جديدة ، وكانت هذه الفكرة البكر أنه عندما خرج من الحمام ، لف سترة الراعي والحذاء المطاطي ذا الرقبة وجلد قربة الرأس وعصا الراعي في بقجة ووضعها في يد أحد الحراس ، وعندما وصل إلى قصر الوزارة ، ذهب أولا إلى السرداب ، وأخذ يبحث هنا وهناك حتى عثر على صندرة خاليـــة ، فوضع البقجة داخل صندوق ووضع قفلا على غطائه ، ودس مفتاحه في طيات شاله ، وانصرف إلى أعمال البلاط والوزارة .

أما ما كان من أمر ألاضيش وزير الميمنة السابق ، الذين أسقط في أيديهم تماما بمجيء الوزير الجديد[١] وحرموا نعمة النفاق والمداهنة ، لأن السيد الراعي الذى صار وزيرا قد قطع عنهم " الحليب والرائب" كما يقال ، وقال " على عادة القرية ، كل من زرع يجب أن يحصد ".. يا أعزاء القلب ، جلس هؤلاء الألاضيش وتآمروا ووضعوا الخطط للقضاء على هذا الوزير القروى الذى كان يظن شغل الوزارة مثل عمودية إحدى القرى . فكان أن قاموا أولا برشوة كبير حجاب الوزير الجديد ، وعن طريقه أخذوا يتلصصون عليه ويطلعون على سوءاته ، وواصلوا العمل حتى عرفوا أن الوزير الجديد يذهب كل أسبوع يوما داخل الدهليز ، ويختفي ساعة عن الغرباء ويقوم بعمل ما . وكان هذا الذى وقع في أيديهم من قبيل طرف الخيط ، فأطلقوا شائعة أوصلوها إلى مسامع الملك فحواها: مالك قاعد ؟ إن خليفة وزير الميمنة لم يكد يصل من الطريق حتى جمع كنزا أكبر من كنزى قارون وسليمان ، ومما لاشك فيه أنه سرقه كله من الخزانة الملكية !! والملك الذى كان عادلا ومحسنا على الرعية بدليل أنه كان يبني كل عام إثنى عشر سجنا حتى لا يجرؤ أحد على السرقة وهتك العرض ، قرر مع وزير الميسرة أن يذهبا في الوقت المحدد ويضبطاه ويقوما بفضحه .

يا أعزاء القلب ... هكذا نقل لنا الرواة وكلامهم كالسكر أنه عندما جاءاليوم المحدد والساعة المحددة ، انطلق الملك مع وزير الميسرة

---

(١) حرفيا : وضعت أيديهم وأقدامهم في قشر جوز . المترجمة .

ومجموعة من الحراس وجميع الألاضيش ، وذهبوا خببا يبحثون عن الدهليز السرى لوزير الميمنة ، وبمجرد أن فتحوا الباب ودلفوا منه ، أوشكوا من الدهشة أن تطلع لهم قرون !! إذ رأوا وزير الميمنة جالسا ، وقد وضع جلد القربة على رأسه ، وقد خلع جبة الوزارة عن جسده ، وارتدى ثياب الراعي ، واتكأ على عصاه القديمة الغليظة وأخذ ينتحب . وحار الملك جوابا بشكل لا يوصف ، أما وزير الميسرة والألاضيش فكأن لم يكونوا .

وحدسوا أنتم ما حدث بعد . ولا جدال أن وزير الميمنة عندما استراح من المتاعب الأولى للعمل ، أرسل شخصا أمينا إلى قرية آبائه وأجداده ، لكي يدفع تعويض قطيع سكان القرية الذى كان قد تفرق بددا في ذلك اليوم ، إذ كان السيد راعينا قد فهم فيما بعد أن كل واحدة من الشياه الهزيلة من قطيعه قد ذبحها أحد المسئولين أو بلطجية أحياء المدينة أمام الموكب الملكي ، وبمجرد أن أدى هذا الدين ، أرسل في طلب زوجته وأولاده إلى المدينة ، فأدخل الأولاد الكتاب ، وعاشوا في أمن وسلام ، حتى شاء القضاء ، ووصلت نوبة الوزارة إلى شخص آخر ، أى أن وزير الميمنة قد تعرض للغضب الملكي ، وعلى مائدة البلاط ، دُس السم في طعامه ، وأمر حكيمباشي البلاط الذى كان حاضرا وشاهدا أن يوصلوه إلى منزله سريعا ، بحجة أنه أصيب بالقولنج ، وفهم السيد راعينا الذى لم تكن الوزارة قدم سعد عليه ما حدث على الفور ، وعندما وصل إلى المنزل ، طلب منهم أن يرقدوه ورأسه إلى القبلة ، واستدعى ولديه ، وأسر إليهما ألا تخدعهما جبة الوزارة

كما خدعته ، وأن يظلا يذكران من أين انحدرا ، ثم أوصاهما بسترته القديمة وحذاءه ذا الساق ، ووضع رأســــه على الأرض ، ومات في هدوء . ولما لم يكن في فترة الوزارة قد جمع ثروة أو ادخر مالا حتى لا يضايق أحد زوجته وأولاده ، كان أن عادت زوجته وأولاده إلى أرض آبائهم وأجدادهم ، وسرعان ما تزوجت البنات ومضين إلى حال سبيلهن ، ولم تتحمل الأم فراق زوجها أكثر من ستة أشهر ، أما الذكور الذين كانوا إثنين ، فلأن الوهن كان قد أصابهما بعد قضائهما فترة طويلة من السكنى في المدينة ، وكان الكنف قد ذاب عن أيديهما ، ولم يعودا بعد يستطيعــــان استخدام الفأس أو نقل المياه ، فقد باعا قطعة أرض صغيرة ورثاها عن أبيهما ، وجاءا إلى المدينة ، ولما لم يكن هناك عمل آخر يتأتى من أيديهما ، فقد شرعا في إدارة كتاب .

حسنـــا ، حقيقة أن قصتنا قد انتهت في الظاهر بهذه السرعة ، لكنكم تعلمون أن الغراب لم يعد أصلا إلى عشه ، وفي هذا العصر والأوان لا يقبل أحد قصة بهذا القصر من أحد . وشاء القضاء أن ناقلي الأخبار قد رووا هذه القصــــة فحسب كمقدمة لكي يقصوا عليكم موضوعهم الأصلي ، وهكذا فحتى يعود الغراب إلى عشه ، لنمض فنرى أصل الموضوع

(٢)

المجلس الأول

والآن مرة ثانيـــة كان يا ماكان في سالف العصر والأوان .. كان هناك كاتبان من كتاب العرائض ، يعمل كل منهما قلمه من الصباح إلى المساء عند باب من أبواب المسجد الجامع للمدينة الكبيرة التي كانت تحتوى على ملك وأيضـــا على وزير ، وكذلك ملا ومنجم ، كما كان فيها أيضـــا شرطة وعسس ، وشاعر وجلاد . كان كاتبانا يقومان بعمل أهل المدينة . وكـان أحـدهمـا يدعى " مـيرزا أسـد الله " أمـا الآخر فيـدعى " ميرزا عبد الزكي " . وقد نشأ معا في الكتاب ، وكانا متشابهين في التعليم والخط بشكل أو بآخر . وعلاوة على الزمالة في العمل ، كان محل عمل كل منهما قريبا من محل عمل الآخر . كما كان كل منهما في الثالثة والأربعين من عمره . لكن السيد ميرزا عبد الزكي لم ينجب ، وكان هذا قـد صـار بـالنسـبـة له داءً بلا دواء . وبالرغم من أن جـاهـه وقـدره كـان أفضل من ميرزا أسد الله بكثير ، إلا أنه كان يتشاجر مع زوجته طوال أيام الأسبوع السبعة ، فقد كانت تعيره بطفلي ميرزا أسد الله السمينين البضين . وبالرغم من أنه قد قيل من قديم الزمن أن أبناء المهنة الواحدة لا يطيق أحدهما النظر إلى الآخر ، إلا أن وضع عملهما

وظروف زمانهما كانت تحتم عليهما ألا يدخلا في منافسة . فذلك الذى لم ينجب أطفالا ، كان لديه المال و الشأن والنفوذ والجاه ، وكان يجالس العظمـــاء ، ومن لم يكن عنده المال والجاه ، كان لديه طفلان جميلان لم يكن ليفرط في شعرة واحدة تسقط من رأسيهما في مقابل الدنيا وكل عظمائها . وإلى جوار هذا ، كان من يعرفون القراءة والكتابة في المدينة - برغم أنها كانت عاصمة كبيرة - قليلا جدا ، وإذا كان من المقرر أن يكتب كل واحد من أهل المدينة على الأقل شكوى واحدة سنويا ليقدمها إلى شرطة المدينة أو حاميتها ، كان العمل كثيرا ، بحيث لا يشتبك الزميلان . هذا في حين أنه كان يحدث مرة كل شهر أن يلقى بشخص من أعلى القلعة إلى خندق الذئاب الجائعـــة ، ومرة كل شهرين أن تحدث جراح في بدن شخص ثم يوضع فيها الشمع المشتعل ، ويطاف به في المدينة من الصباح إلى المساء ، حتى لا يجرؤ أحد على السرقـــة وهتك العرض ، لم يكن زبائن كاتبينا - على كل حال - قلة قليلة . ولنفس هذا السبب لم يكن احتفاظهما بصداقتهما قائما فحسب ، بل وفي فترات متباعدة كان كل منهما يساعد الآخر ، ولم يكن بينهما أى نوع من التحرج ، كان كل منهما مطلعا على أسرار الآخر ، وحدث كثيرا أن كلا منهما كان يبوح للآخر بمكنونات نفسه ، لكن كلا منهما كان قد اختار طريقا لنفســه في الحياة ، دون أن يتدخل الآخر فيـــه .. حسنـــا ! كيف ذلك ؟ لنتتبع هذين الكاتبين واحدا بعد الآخر ، ولنر ماذا كانت أحوال كل منهما وأسلوب عيشه .

يا أعزاء القلب ، من ستة بطون وضعتها زوجة ميرزا أسد الله له ،

لم يبق على قيد الحياة سوى اثنين . كان أحدهما ذكرا في الثانية عشرة من عمره يسمي حميد ، كان يذهب إلى الكتاب في الصباح ، وعصرا كان يلزم أباه ، يتلقى منه أوامره ، ويحذق صنعته ، وبنتا في السابعة من عمرها لطيفة وظريفة تدعى حميدة ، وكانت تلازم أمها وتسمعها أحلى الكلام ، وكانت تقوم بكافة الأعمال التي تطلبها منها أمها بداية من تنظيف الخضـــار وحتى دق اللحم . كان بيتهم مكونا من حجرتين ، وحوض وحديقـــة صغيرة جدا كأنها كف اليد كان الأطفال قد زرعوها بزهور نوار الليل ، وكانا يرويانها بنفسيهما ، كما كان في حوضهم خمس سمكات ملونة ، كل ما كانت تفعله ليل نهار أن تجرى خلف بعضها البعض . كانت إحدى الحجرتين قد فرشت بسجادتين تركمانيتين ، كما وضعت مشكاتان أعلى رف في الجدار ، وكانت الحجرة الأخرى قد فرشت بزرابية وطاقمين من الفراش طرفي الحجرة . كما صف على الأرفف كثير من الأطباق النحاسية والصيني وأشياء أخرى من هذا القبيل مما يلزم في الحياة . كما كانت تحتوى أيضـــا على ثلاجة ، وفي ركن من هذه الحجرة وضعت ملابسهم ، وكان من بين هذه الملابس سترة راع ممزقة وزوج من الأحذية المطاطيـــة ذات الساق ، وعصا معقوفة ذات عقد ، كانت زوجة ميرزا أسد الله قد ضاقت بها ذرعا ، ولا تعلم السبب في تعلق ميرزا بها إلى هذا الحد ، ولا يسمح لها بأن تقايضها بقميص نـــوم .

كانت زوجة أسد الله تدعى زرين تاج هانم ، وهي من السيدات اللائي يقطر كل إصبع من أصابعهن فنا من الفنون . كانت بمفردها

تستطيع أن تعد الغذاء لمعسكـــر ، لكن مع أسف ، لم تكن حياة ميرزا تعرف الحفلات أو الضيافات ناهيك عن استضافة معسكـــر، فلا أحد يتردد عليه ، ولا لديه مائدة حافلة ، ولا حصان ولا بغل ، ولا خادمة ولا تابع. حتى زرين تاج هانم أحيانا عندما تكون متعبة ، كانت تسلم يد الهون لابنتها الرقيقة لتدق اللحم ، ومع كل هذا كان قلبها يضيق بشدة من تصاريف الدهر ، فتصب ضيقها على رأس ميرزا ، مرة ذات يوم بسبب عباءة درخشنده هانم زوج ميرزا عبد الزكي ، لأن عباءتها أحدث وأكثر جدة . ومرة أخرى ذات يوم لعودته متأخرا عن البيت ، أو لتلوث يده دائمـــا بالحبر ، ومرة لأن سقاء الحي وضع في خزان الماء ماءً كدرا في أول دور ، وأشيـــاء من هذا القبيل ، لكن المشاجرات لم تصل في أى وقت إلى حد النكد والخصـــام ، وقبل أن يأتي الليل ، كانا يتصالحان من جديد .

أما عن عمل ميرزا أسد الله وشغله ، فقد كان على النحو التالي : في الصباح بمجرد أن كان يتناول إفطاره ، كان يضع مقلمته في عقدة طرف شاله ، ثم يذهب متوكلا على الله إلى جوار باب المسجد الجامع ، فيخرج فرشه المكون من منضدة صغيرة ونطع من خزانة أحذية المسجد، ويفرش النطع تحت قدميه بجوار باب المسجد الكبير داخل ممر ، ويجلس إلى المنضدة على ركبتيـــه في انتظار زبون . كان عمله النسخ على الورق وكتابة العرائض بخط نستعليق(١) جميل وهوامش عريضـــة

(١) الخط المتداول في إيران منذ القرن الثامن الهجرى وهو مزيج من الرقعة والنسخ يحتوى على كثير من جماليات الخط . المترجمة .

، وخطوط ذات حروف انسيابية في أواخرها ، وتراعي القواعد بدقة . ، وكان يأخذ مليما عن كل ورقة يكتبها . كانت لديه تسعيرة . وكان زبائنه من تجـار السـوق يكتب لهم أوامـر توريد الأرز والزيت واللوبيـا التي يرسلونها إلى التجار أو الإيصالات والحوالات والعقود ، ومن النساء اللائي يكتبن إلى أهلهن وذويهن دون علم أزواجهن ، أو الخادمات اللائي هجرن مواطنهن وحبسن في المدينة ، واشتاقت قلوبهن إلى مواطنهن ، فكن يسألن عن أحوال البقرالمجود عند آبائهن بقرة بقرة والخراف خروفا خروفا ، ويرسلن السلام إلى أهل القرية فردا فردا ، ويوصين بالدواء اللازم لشفاء حمار العائلة المصاب بالجرب . أو من فواعلية أعمال البناء الذين كانوا يرسلون أجورهم في فصل الصيف إلى ذويهم ، أو من الأشخاص الذين لديهم شكوى ، ويرغبون في كتابة عريضـــــة وتقديمها إلى الحاكم أو الشرطـــة أو الديوان . ومادامت الفرصة قد حانت ، لأحدثكم إذن عن أوضـــــاع ذلك الزمان ، ولماذا لم يكن حجر يستقيم على حجر ، ولماذا كنت إن وضعت يدك على قلب أحد ، ارتفع أنينه إلى عنان السماء .

يا أعزاء القلب .. كان يحدث كل أسبوع أن طفلين أو ثلاثة من أطفال الكتاب و من أبناء الأعيان والأشراف ، الذين يستنكف آباؤهم وأمهاتهم أصابع أطفالهم من أن تصاب بالكنف من ضغط القلم ، فيضعون واجبات أبنائهم تحت آباط كبار المربين ، ويرسلونهم إلى ميرزا أسد الله ، فكان يكتبها على الفور ويعيدها ، وكان هذا العمل يدر على ميرزا أسبوعيـــا أربعة قروش وأحيانا عشرة وأحيانا أخرى أكثر ،

دعونا من هذا ، فقد كانت مثل هذه الأعمال أحيانا تأخذ ليالي ميرزا أسد الله ، فيظل قنديله مضاءً حتى الفجر ، ويكون الأطفال نائمين ، بينما يتصاعد صراخ زرين تاج هانم ، لكن إشباع بطون أربعة أفراد في ذلك الزمان لم يكن بالشيء الهين . وعندما كان ميرزا صبيحة اليوم التالي يدس يده في طرف شاله ، ويصب في حجر زوجته النقود المختلفة ، ينتهي النكد ، وإذا كان الطفلان مشغولين في مكان آخر ، كان كلاهما يقبل وجه الآخر .. وكانت هناك طرق أخرى يكسب منها ميرزا أسد الله ، فعندما كان يرى عيون الملات وأرباب العمائم بعيدة عنه ، كان يكتب لكبراء الحي المصالحات أو الوصايا أو يحرر عقود شراء المنازل والدكاكين والأملاك وبيعها ، لاجدال إذا كان الفقهاء ومن يمثلون المفتى لايشمون خبرا عن الموضوع ، وكان هذا النوع من الأعمال يدر دخلا ضخما . وكان العقد الواحد يساوى عاما كاملا من الكتابة ، وأحيانا كان يدر السكر النبات والشال . لكن من أسف أن هذه اللقم الحلوة لم تكن تنزل من الحلق بيسر ، فقد عنت له هذه الأعمال ثلاث مرات فقط خلال الخمس عشرة سنة التي حل فيها ميرزا أسد الله محل أبيه ، كانت الأخيرة منها منذ ثلاث سنوات فحسب ، وبسببها أوشك ميرزا على الوقوع في مصيبة . وكانت سببا في أن " ميزان الشريعة " إمام الجمعة في المدينة ومفتيها ، أمر رئيس حفظة الأباريق في المسجد أن يتجسس على أعمال ميرزا ، وأن يبلغ أخبارها إلى شرطة الحي يوميا من الألف إلى الياء.

وفي المرة الأخيرة كانت الحكاية على هذا النحو : فقد جاءوا

وأخذوا ميرزا ليكتب وصيـــــة الحاج عبد الغني الذى كان قد كبر وخرف ، وكانت زوجاته من متعة ودائمات يخشين أن يموت دون أن يوصي ، ويضع رئيس العسس والحاكم أيديهما على أمواله ، فلا يطول المساكين الأيتام شيئا ، وشاء القضاء أن ينتقل الحاج إلى رحمة الله بعد كتابة الوصيـــــة بأسبـــوع واحد ، وكان رئيس الشرطة ورئيس العسس قد جهزا خرجيهما ، وبمجرد أن وقعت عيونهما على خط ميرزا وختمه ، تصاعد الدخان من يافوخيهمــــا ، لكن لم يكن بمقدورهما فعل أى شيء .

ولما كان خط ميرزا يحظى باحترام جميع أهل الحي وثقتهم ، وكانوا يعلمون أن ميرزا لم يكن ليضـــع نقطة واحدة زيادة على أى حرف في أية صفقــــة . فكان أن أرسل رئيس شرطة الحي إلى ميزان الشريعة الذى حكم بأن يجلد ميرزا أسد الله في محل عمله وسط السوق بتهمة التدخل في أمور ديوان الشــــرع . وإذا كنتم تريدون الحق ، لو لم يتدخل شيوخ الحي وكبراؤه في الوقت المناسب وتأخروا قليلا ، لرحمه الله ولسبق السيف العذل . فقد ذهب عشرة أشخاص أو إثنا عشر برئاسة حكيمباشي الحي الذى كان خال ميرزا أسد الله إلى ميزان الشريعة إمام جمعة المدينة ، وتعهدوا له بألا يتدخل ميرزا ثانيــــة في عمل حاكم الشرع ، ورضي ميزان الشريعة وقبل ، لأنه وهو الذى فقد الثلث والخمس والزكاة من تركة الحاج عبد الغنى ، لم يكن يريد أن يموت أحد هؤلاء الشيوخ ويظلم بنفس القدر ، فسحب شكوى حاكم الشرع ، كما قاموا أيضا بإرضاء رئيس الشرطة بشكل أو بآخر ،

وهدأت الضجة . وحقيقة الأمر أن كبراء الحي لم يتدخلوا بهذا الثقل احتراما للحكيمباشي فحسب ، فقد مر جلد كل واحد منهم ذات يوم بمدبغته ، لكن السبب في توسطهم لمصلحة ميرزا أسد الله أنهم هم أنفسهم كانوا يميلـــون إلى هذا النوع من الصفقات وكتابة العقود والوصايــا في الخفاء ، فهم يفضلون الركون إلي شخص قنوع وثقة مثل ميرزا عن الذهاب في أى وقت إلى المفتى أو رئيس الشرطة أو رئيس العسس ، ذلك أنه من أجل أى عمل مالي صغيـــر أو صفقة محدودة ، إذا تقرر ودخلت قدم المفتى وحاكم العرف والبلاط ، تؤخذ بفظاظة حصة للضرائب وأخرى للعشر وثالثة للخمس .. ومال الله ورد المظالم وحقوق أخرى متأخرة ، وأحيانا ما يتم إنفاق ما هو أكثر من أصل الصفقة ، ولهذا السبب توسط كبراء الحي بسرعة شديدة ، وحفظوا ماء وجه ميرزا أسد الله بأنواع من التوسل والرجاء ، كما أقنعوه أن يذهب ويقبل يد ميزان الشريعة بعد صلاة المغرب على مرأى من جميع أهل الحي ، وبعد ذلك عليه بقدر ما يستطيع ألا يقوم علنا بمثـــل هذه الأعمـــال .

وهكذا كما رأيتم ، برغم أن الرزق قد قل في شبكة ميرزا أسد الله ، إلا أنه كان يكتب كل يوم على الأقل من عشرين إلى ثلاثين ورقة وحوالة وكمبيالة وعريضة ، وكان ينفق على أولاده من هذه الأعمال قانعا بها ، وعلاوة على ثقة أهل الحي التي أولوه إياها ، كان يتقن عمله ، فكان أيضا يجيد الرسم والتذهيب والتشعير والتلوين ، فكان يحصل على زبون أو اثنين من الزبائن المحترمين سنويـــا ، يريد كل منهم أن ينسخ

له ديوان حافظ" الشيرازى " أو غزليات ديوان شمس الدين التبريزى ، أو يُذهِّب له رباعيات الخيـــام ، أو يجهز له كتاب زاد المعاد منسوخا في قرطاس " طومار " . وعن طريق مثل هذه الأعمال كان يشترى الفحم للشتاء ، وملابس العيد للأولاد .

يا أعزاء القلب .. كانت أعمال ميرزا كلها على هذا النحو ، وكما قلنا كان يتقن عمله ، وكان ناظرا إلى شخصية الزبون في الأوراق التي يحررها ، وكان يعلم مع من يتعامل ، وأية ألقاب يخاطبه بها ، كان يتقن كل شيء ، بداية من الخطاب إلى الأخ أو الأخت ، حتى الشكوى إلى رئيس الشرطة ورئيس العسس بل والبلاط ، كان يعرف كيف يبدأ وكيف ينهي ، وكيف يصعد الموضوع بحيث لا ينفرط منه في أى موضع ، وأين يضع بيت الشعر ، وأين يستشهد بالمثل العربي أو الآية القرآنيـــة . كما كان قد عرف كافة الدهاليز الحكومية والملكية بل ودهاليز السجن من كثرة ما كتب من عرائض . وكان يعلم ما يجب على الشاكي أن يفعله ، ومن يرشو حتى يحصل على نتيجة من شكواه ، ومن كثرة ما كتب من إيصالات وبراءات ذمة ، كان قد اطلع على أسرار حياة أهل الحي ومداخلها ، كما كان يعرف ماذا يملك كل شخص ، بل وكم تحت كل منهم من الزوجات ، وكم لكل منهم من الأولاد ، كان على علم أيضـــا بأحزانهم وهمومهم ومشاغلهم ، وعلى سبيل المثال ، إن كان عند أحدهم عرس أو لا قدر الله عزاء ، أو أن أحدا -خرس لساني- أفلس أو مات ، كان ميرزا أسد الله أول من يبلغ ، وذلك لكي يذهب فيعد مشروبات المجلس وصوانيه وأقداحه ، أو يرسل لإحضـــار القزان وحامله ، أو

يكتب الدعوات . وبناء على هذه الخلفيات ، كان أهل الحي كلهم يعرفونه بداية من باب المسجد الجامع للمدينة حتى أنحاء القلعة الحكومية ، وكان بينهم وبينه ود ومعرفة ، ومن الممكن أن نقول أنهم كانوا يحبونه . لكن إذا أردتم الحقيقة ، فإنه لا يمكن الحكم بسهولة على أحوال الناس في ذلك الزمان . ذلك أنه من كثرة مشاغلهم وفضائحهم ، ولأن كل أمر بداية من لقمة العيش حتى زواج البنات ، كان كارثة بالنسبة لهم ، فقد كان لديهم الحق في ألا يفكروا كثيرا في ميرزا أسد الله ، لكن من الممكن الحكم إلى هذا الحد أنه لما كان ميرزا أسد الله أحد احتياجات أهل الحي ، فقد كانوا يهتمون به بقدر اهتمامهم برئيس حفظة الأباريق في المسجد خشيـــة أن يُحصر أحدهم ذات يوم ، ويتأخر عليه الإبريق ، لا أكثر ولا أقل . حقيقة أن تعامل ميرزا أسد الله كان مع القلم ، الذى هو أول ماخلق في الكون ، وكان عالما بالشعر ، ومهما كان فقد كان يختلف اختلاف السماء عن الأرض عن ذلك الذى كان كل تعامله مع الأباريق والروائح العفنة ، ولكن بالنسبـــة لأهل الحي في ذلك الزمان كان كافيا بالنسبة لإنسان لم يكن يملك حصانا أو بغلا ، ولا حاجب ولا بواب يأخذ أجره منه ، ولا سائس يسرع كالكلب خلف بغله حتى يضطروا لتعظيمه واحترامه ونفاقه ومداهنته ، كان كافيـــا أن يعتبروه واحدا مثلهم ويتعاملون معه كما يتعاملون مع بعضهم البعض .

حسنا . كان هذا هو عمل ميرزا أسد الله وشأنه . ولنمض الآن لنر ما كان من أمر الكاتب الآخـــر .

يا أعزاء القلب ، كان السيد ميرزا عبد الزكي من حملة الألقاب ، ويمكن بصعوبة اعتباره كاتب عرائض ، لكن لما كان على أى نحو كان يتعيش عن طريق القلم والورق ، فلا حيلة لدينا في اعتباره من أهل هذه الصنعة ، وهو أيضا لم يكن لديه بد إلا أن يقبل التعاون مع ميرزا أسد الله بحب وود . على كل حال فهذا الكاتب للعرائض كان يملك مكتبا محترما إلى جوار أحد أبواب المسجد الجامع في أول السوق الكبير ، وكان قد فرشه بالسجاجيد الكردية والكاشانية ، ووضع فيه حشايا للزبائن ، وبمجرد أن كان أحد يدلف من الباب ، وبقدر حيثيته وعمله ، كان ينادى على صبيه ويأمره بأن يحضر ماءً باردا من خزان ماء المسجد ، أو يعد له شراب الجلاب ، وهكذا كما رأيتم كان عنده صبي ، وأحيانا كان يحدث في مجلس العظماء والأماكن التي لا يمكن الدخول إليها دون أبهة وعظمة ، كان ميرزا عبد الزكي يقدمه على أنه كان سكرتيره، مع أنه كان أميا . وبعد خروجهما من المجلس ، كان يشبعه تقريعا ويقول له " يا مفضوح ، لو كنت قد تعلمت ، لصرت الآن آدميا من أجل نفسك " وكلاما من هذا القبيل . على كل ، بالرغم من أن ميرزا عبد الزكي لم ينجب ، إلا أنه كان مُسعدا ، فكان يملك بيتا من خمس أو ست غرف فيه سلاملك وحرملك وسردابان وحوض ، وأبهة . كان كل موضع فيه مفروشا بالسجاجيد المتنوعة، وكانت الغرف مليئة بالثريات والثلاجات والحشايا والصناديق الصغيرة والكبيرة . وكانت عنده أيضا خادمة حاذقة تقوم بكل أعمال المنزل ، بينما كانت زوجته درخشنده هانم تروح وتجيء في وقار

وبهـــاء ، ولا تمد يدها إلى عمل من أى نوع ، وتجعل من نفسها سيدة بمعنى الكلمة . وإذا أردتم الحقيقة ، فقد كان هذا حقهـــا ، فهي امرأة متميزة ، من أسرة خانلرخان مقرب البلاط ، والذى كان من المقرر في الاستقبال الرسمي القادم أن يُنصب ملكا لشعراء البلاط ، أى أن درخشنده هانم كان لها حفيد عمة هو في نفس الوقت إبن خال خانلرخان ، وكانت هذه القرابة في ذلك الزمان شيئـــا عظيمـــا ، وتساوى النعرة الكاذبة بها . وثمة أمر يقـــع وزره على رواة الأخبار الذين يقولون ، أنه إلى جوار كل هذا ، كانت رقبة خانلرخان في يد درخشنده هانم ، وبالرغم من أنه ليس من الخير أن يتحمل المرء وزر غيره ، فإن ميرزا عبد الزكي نفســـه كان على علم بالموضـــوع ، لكنه كان يتغاضى ، لأنه لنفس السبب ، وجد الطريق ، وكثر تردده على ملك شعراء البلاط القادم ، والذى كان يمكنه في أى وقت أن ينظم قصيدة عصماء في جرس صوت تكريعة وزير الدواب بعد أكلة أرز بالسكر ، أو ينظم مرثيـــة عندما نفقت –مثلا– جحشـــة قبلة العالم ، فينظمها ويعطيها لميرزا عبد الزكي لينسخها على قرطاس طويل بقلم مزدوج ويزين ما حولها بماء الزعفران واللازورد وأيكات الورد ويأتي بها . كما كان يتمتع بقدرمن الأريحيـــة إلى درجة أنه بمناسبة وغير مناسبـــة يذكر إسم ميرزا عبد الزكي أمام السيد نور الدين الصدر الأعظم ، أو أمام مستوفي الممالك ، كما كان يوصي به في كل وقت رئيس العسس ورئيس الشرطة .

ومما لاشك فيه أن ميرزا كان يعرف طريقه جيدا ، ولذلك لم يكن

ينتظر من ملك شعراء المستقبل الحتمي أى أجر أو هبة في أئ وقت على مثل هذه الخدمات التافهة . فكان كافيا أنه قد وجد الطريق إلى بيته . وفي النهاية كان خانلرخان يقيم استقبالا عاما في الجمعة الأولى من كل شهر في بيته ، مثل ذلك الذى كان يقام في البلاط ، وكان يدعو إليه كل أهله وعشيرته ، كما كان ميرزا وزوجته يذهبـــان صباح كل جمعة أولى في الشهر ، فيقابلان خانلرخان ، وكان السيدات يمضين إلى الحرملك ، أما الرجال فيظلون في السلاملك . وفي نفس هذا المجلس كان كل حاضـــر ينجز ألف مصلحة .

يا أحباء القلب .. ، في الحقيقة وبناء على هذه القرابة ، كان ميزان الشريعة المفتى أيضـــا يرجع إلى كاتبنا في بعض الأعمال . فعندما يكون هناك عرس أو تحرير عقد بين كبار القوم ، كان يصطحبه معه ككاتب ، فهو على كل حال كان حسن المظهر ، يلف عمامته بشال أخضر عريض ، ويجيد ارتداء الجبة الكشمير . وكان سلوكه محترما وسليما مع الأعيـــــان ، يعرف كيف يلقي السلام ويسأل عن الأحوال ، ويجيد كل هذا . وإلى أن يتم ميزان الشريعـــــة الخطبة ، كان يستخرج بشق الأنفس موافقة العروس الجوهرة المكنونة ، ويقوم بإعداد العقد وكتابة مقدمته ، ويجعله جاهزا على إمضاء السيد وشهود العقد . والسبب ؟ لأنه كان سيدا ، وقد قالوا منذ سالف العصر والأوان أن مثل هذه الأعمال جديرة بأولاد الرسول ، ولهذا السبب لم يكن ميرزا ينسى الشال الأخضر في أى وقت . وكان قد ألقى في روع الناس أن يده مباركة وأحجبته تجلب الحظ ، كما كان يحرص على أن يعود الناس على

مخاطبته بلقب سيد ، ليس لأن لقب كاتب قليل عليه ، بل لأن كاتب الأدعية لا بد وأن يكون سيدا .

على كل كان ميرزا عبد الزكي يكتب الأدعية ، فيكتب حرز جواد للإعفاء من الجندية ، كما يكتب أدعية لدفع الأذى والضرر والحسد ، ولدفع لدغ الثعبان والعقرب ، ولفك عقد البنات ، ولثبات حمل كثيرات الإجهاض ، ولعلاج ألف داء ليس لها دواء ، مما لايتأتى من الحكيمباشي ، وكان يتقاضى عن كل دعاء من هذا الصنف قرشين من الفضة ، فهو أيضا له تسعيرة ، هذا إذا لم يكن الزبون أحد الأعيان والأشراف ، ولا يمد يده ويترك له عملة ذهبية فوق مكتبه . وكان هذا من ميزات عمل ميرزا عبد الزكي ، فقد كان معظم زبائنه من نساء الأعيان والأشراف ومن أكابر المدينة . كان أغلبهم يرغب في حرز ورقية ضد الحسد ، أو فضلات الضبع وخرزة الحية ، كما كانوا يطلبون في أحيان متباعدة عملا من أعمال السحر والشعوذة . ومن أجل هذا الصنف من الزبائن ، كان ميرزا عبد الزكي يحتفظ في درج مكتبه بنبات يبروج الصفر ومخ حمار وشارب نمر ، ويحتفظ داخل خزانة خلف مكتبه بفأر وقرد وحية وعقرب كلها محنطة . – وماذا يخفى عليكم ؟– أخيرا كان قد أعد تابوتا قديمسا وتركه ممددا بجوار الحجرة ، وكان قد غطاه بسجادة تركمانية حتى لا يراه أحد ويصاب بالرعب ، وكانت كل من تحتاج إلى " خضة " من أجل الحمل ، أو إبطال عمل من أعمال السحر تنام فيه . وكل من يريد دواءً للمحبة كان يأخذ يبروج الصفر ومخ الحمار ، كما كان كل من له عدو يأخذ فأرا ميتا وعقرب

محنطا .. وهلم جرا ، وحرصا على العلاقة بين ميرزا وبين زميله ميرزا أسد الله ، كان يحسب حساب الحكيمباشي ، فلم يكن- بقدر المستطاع- يضع دواء الشرب في علب وأعمال السحر والشعوذة في لفائف ، وإذا فعل كان يفعل هذا سرا . وكان يقسم على الزبون بالأيمان المغلظة ويوصيه ألا يرى أحد لون دوائه ، بل لايكشفه للسماء. وكان هذا الدواء عبارة عن تراب قصبة رجل ميت ، وماء غسل الأربعين لنفساء ، وجذور الخردل ، وتراب مقبرة ، وأشياء من هذا القبيل ، وكان يعجنها مع خيزران هندى وجوز جبلى وماء زعفران ويشكلها على هيئة أقراص ، ثم يعطيها للزبون ، ولم يكن ثمن هذا العمل قرشان ، بل خمسة قروش .

وهناك وجه آخر من وجوه دخول ميرزا عبد الزكي ، فقد كان يعد الدفاتر للمداحين ، وللفتيان المنعمين الوسيمين الذين كانوا يضعون على رؤوسهم الطربوش الأحمر ملفوفا بشال أخضر ، ويضعون في أقدامهم المراكيب ، وعلى أكتافهم العباءات الخاجية ، وكانوا ينتقلون من هذا المنبر إلى ذاك المنبر ، ومن هذا المجلس إلى ذاك المجلس ، وببيتين من الشعر يمدحون كل الأئمة ، أو يتحدثون عن مصارعهم ، وكانوا موجودين في كل مكان ، عرسا كان أو عزاء ، وفي أسبوع المولود ، وفي احتفال الختان ، وفي ولائم عودة الحجاج ، ويقومون بدور الحداة أمام قافلة من زوار مشهد أو كربلاء .

وكانت تلزم طوامير لهذه الخدمات ودفاتر ، ولذا عقد ميرزا عقدا احتكاريا مع أحد الصحافين جنوب السوق الكبير ، فكان يشترى منه

الدفاتر ذات الجلد الكشمير الأصفهاني والطوامير ذات الهوامش المختلفة بجلد القيطاني بسعر أقل ، ثم يقوم بملئها بأشعار محتشم أو أحاديث مجالس البكاء وبحار الأنوار أو بأشعار كليم كاشي والشيخ بهائي(١) ويبيعها . وكان يحدث أحيانا أن يعطي المعارف لهؤلاء الفتيان بالتقسيط ، لأن كل من كان لديه واحد من هذه الدفاتر والطومارات في أول المحرم ، ولديه صوت متواضع ، يستطيع في العشر الأول من محرم فحسب أن يحصل على نفقات حياته بما يكفي أربعة شهور .

وبهذه المناسبة كان ميرزا عبد الزكي يضع دوى مختلفة الألوان على منضدة منحوتة من قطعة واحدة من الخشب مع زجاجة من ماء الزعفران وطومارات مختلفة الأحجام ومقلمة من صنع تبريز ، وصنفين أو ثلاثة من المساطر ، لأن الأوراق قديما لم تكن مسطرة ، وكان الكتاب مضطرين إلى تسطيرها بأنفسهم ، ولهذا العمل كان لديهم مساطر حديدية وأخرى نحاسية . كانوا في البداية يدقون المسطرة فوق الصفحة بحيث تغوص في أماكن الخطوط ، ثم يشرعون في الكتابة. وهكذا سميت مسطرة .

---

(١) محتشم هو محتشم الكاشاني شاعر مراثي آل البيت المشهور في العصر الصفوى ، ومجالس البكاء المقصود بها الكتب التي ألفت للتباكي على مصارع آل البيت ومنها روضة الشهداء لمحتشم وطوفان البكاء للجوهرى وبحار الأنوار موسوعة ضخمة في تواريخ آل البيت ومصارعهم من تأليف ملا محمد باقر المجلسي وكليم كاشي شاعر صفوى والشيخ بهائي هو بهاء الدين العاملي الشاعر والفقيه الصفوى المشهور . المترجمة .

على كل حال ، كانت هذه خلاصة أعمال كاتب العرائض الثانى وأحواله وحياته . والآن لنهب فنرى ،كيف كتبت هذه القصة ، وماذا حدث في حياة هذين الكاتبين بحيث اضطر نقلة الأخبار إلى ترك قصص الملوك وأدباء والعظماء والتي فيها الرزق والعيش ، ليتدخلوا في أمور هذين الكاتبين والتى لا أجر عليها في الدنيا ولا ثواب في العقبى

(٣)

المجلس الثانـــى

أقول لكم من صميم القلب أيها الأعزاء ... ذات يوم من أيام أواخر الصيف وبداية الخريف ، كان ميرزا أسد الله جالســـا إلى فرشـــه منهمكا في كتابة ألواح الواجبات لأطفال الكتاب ، وكان يكتب لهم "استقم فقد نجا المستقيمون" و "قسوة المعلم أفضـــل من حنان الأب" ونصائح ومواعظ من هذا القبيل لم يكن هناك تلميذ قط لم يسمعها من معلمه أو من أبيه ، ليس مرة واحدة بل خمس وثلاثين مرة . كان يكتبها بخط نستعليق مقروء ذى سينات ممتدة ذات نقاط سبع وألفات سامقة مرتفعة ذات نقاط ثلاث . وكان قلمه يصـــر صريرا ، بينما كانت الشمس ترتفع ، ويدخل من حلق باب المسجد صهد لا يوصف . وانتوى ميرزا أن يتم عمله قبل حركة مرور صلاة المغرب ، ويجمع فرشه ويذهب إلى البيت . كان ولده جالســـا إلى جواره ، يأخذ الألواح المكتوبة واحدا بعد الآخر بمجرد أن تخرج من تحت يد أبيـــه ، ويضعها فوق لهب شمعة كان قد أشعلها بين قدميه ، وذلك حتى تجف سريعا . وفي أحيان متباعدة كان شخص أو إثنان يذهبان إلى المسجد ، ولأنهما كانا

متعجلين ، كانت الرياح تملأ أطراف أقبيتهما ، فيزداد نور الشمعة اعوجاجا ، ويلوث الدخان أطراف الألواح ، وكانت غمغمة حميد ترتفع، وحدث مرتين أو ثلاثة ، فارتفع صوت ميرزا قائلا :

– لماذا تغمغم بهذا الشكل يا بني العزيز ؟

أجاب ولده: أخيرا يا أبي ، حتام تريد كتابة هذه الألواح ؟

اعتدل ميرزا أسد الله ، ورفع عينيه من على اللوح وسمرهما طرف سطح المسجد ، وتحرك فوق النطع وقال :

– يا بني العزيز ، لا ضير عندي في أن أضع كل هذه الأقلام في حبة عيني ، لقد كبرت الآن ، وينبغي أن تفهم أمور الدنيا ، إعلم أن هذه هي واجبات زملائك في الكتاب أكتبها في مقابل شهرية الكتاب للسيدة معلمتك . قل لي.. كم يدفع اولئك الآخرون من زملاء المكتب شهريا ؟

تلعثم حميد ثم قال : لا أعلم يا أبي ، أحيانا يحضرون دجاجة ، ، وتارة أخرى منديلا معقودا .

قال ميرزا : لا بد أنك تخجل لأنك لا تحضر أبدا منديلا معقودا . أهذا صحيح ؟ أليس كذلك يا حبيب أبيك ؟ ليس عليك أن تخجل ، فهؤلاء الآخرون أولاد الأعيان لا يدفعون في الشهر أكثر من عشرة قروش أو إثني عشر قرشا . وأنت تدفع أكثرمنهم . أتعرف لماذا لأن أجر كل واجب من هذه الواجبات وما يكلفه من حبر وقلم ، وما يستغرقه من وقت يتكلف جزءً من عشرين من القرش ، فكم يجمع خمسة وثلاثون لوحا مرتين أسبوعيا ؟

قال حميـــــد : سبعين .

قال ميرزا : بارك الله فيك ، إذن ثلاثون يوما في الشهر تجمع أقل من الثلاثمائة بقليل . وهذا هو عمل المعلمة ، ولأن خطها ليس جيدا ، لهذا اتفقت معي ، وكل قرش من عشرين جزء ، إذن يكون مجموعها خمس عشرة قرشـــا كل شهر . معنى هذا أنك تدفـــع قدر أولاد الأعيـــان مرة ونصف . أقول هذا لك حتى لا تعتقد أنك – معاذ الله – أقل منهم . فعيب عملنا أن أباك فقير ، ولا يستطيـــع أن يحصـــل على شهرية كتابك من طريق آخر . نعم يا حبيب أبيك ، فعيب العمل أن المال والمكنة لا يوجدان في طائفتنا .وشرع في الكتابة ثانيـــة ، لكن حميدا لم يكن قد اقتنع بعد ، وبدا وكأن شيئـــا يثقل لسانه ، وقال في النهايـــة : لماذا يا أبـــي ؟

قال ميرزا أسد الله وهو منهمك في الكتابـــة : تسأل عن ماذا ؟

قال حميد مرة أخرى : لماذا لا نملك المال والمكنة ؟

قال ميرزا : وما علمي يا حبيبي ؟ كل وما قسم له ، ويقال من قديم أن الرزق مقسوم منذ يوم الأزل ، هل تعلم معنى يوم الأزل ؟

قال حميد : نعم يا أبي ، فقد كان هذا واجبي بالأمس ، وهو عبارة عن " من بدايـــة صبح الأزل حتى آخر ليل الأبد " ، لكن الخلاصـــة : لماذا لا يجب أن نكون من أصحاب الأملاك ؟

قال ميرزا : لأن أبي لم يكن من أصحاب الأملاك ، وجدى أيضا لم يكن من الملاك . وأنا أيضـــا كنت مثلك أذهب إلى الكتاب ، وهكذا كان

أبي ، مع الفارق أن عمل أبي كان أصعب من عملي . أتذكر أن أبي كان يكتب أسبوعيـــا مائة وخمسين واجبــا ، حتى لا تطردني المعلمة من الكتاب .. عجيبا كان ذلك الزمان الصعب . أتعلم يا حميـــد ؟ كانت بداية الحرب مع أهل السنة ، وكانوا يأخذون الشباب بصورة مجحفة إلى السخرة . وكل الرجال ذهبوا إلى الحرب ، وانتقل العمل من المعلمين إلى المعلمـات . وبداية من ذلك الوقت صـارت إدارة الكتـاتيب عـمـلا نسائيـــا . وكان لدى المعلمة مائة وخمســـون طالبا ، متقاربون في الأعمار . وكان العريف أضمهم جسما وفي الرابعة عشرة من عمره ، ولم تكن المعلمة في الأصل تعرف القراءة والكتابة ، كانت فحسب تقوم بعمل زوجها الذى كان قد ذهب إلى الحرب وانقطعت أخباره . رحم الله تلك المرأة التي قـامت واستطاعت أن تحـتـفظ بمحل رزق زوجـهـا مفتوحـــا ، بينما أغلقت محلات الآخرين ، أقصد المعلمين الآخرين .. ومن هنا كان سبب ازدحـــام كتابنا .. ماذا كنت أقول يا حميـــد ؟

قال حميـــد : لاشيء ، كان الكلام عن فقرنا ، وأنت آخذ في رواية قصة . أنا أريد أن أعلم ، لماذا لا أملاك لدينا ؟ ألم تقل أنت نفسك أنني لا بد أن أفهم أمور الدنيـــا الآن ؟

قـال ميرزا : يا بني العزيز ، إعلم أن المال إن اكتسب عن طريق حلال لا يكون أكثر من هذا ، يكون بقدر ما يستطيع المرء أن يقيم أوده هو وأسرته .

قال حميد : ومن أين يحصــــل عليه الآخرون بحيث يأتي أولادهم إلى الكتاب راكبين الحمير البندرية وخلفهم المربون ؟

قال ميرزا : أى علم لي يا بني ؟ وأى دخل لي ولك بأمور الناس ؟ لا بد أنهم ورثـــوا .

سأل حميـــد قائلا : ما معنى ورثوا يا أبي ؟

أجاب ميرزا : الميراث هو ما يؤول إلى المرء عن أمه وأبيـــه .

سأل حميد مرة أخرى : وماذا ترك لك أبوك من ميراث ؟

أجاب ميرزا بعد أن نفد صبره وغمغم وتحرك فوق النطع ، ونحى عدة ألواح كانت تحت يده ، وأوشك على الغضب ، لكن لم يطاوعه قلبه ، فهو على كل حال ابنه ويريد أن يعرف شيئـــا ، فكان منه أن تنهد وقال :

– الآن تريد أن تعرف ، فافتح أذنيك جيدا ، فأبي قد حدثني في هذه الأمور أيضا ومرة واحدة . نعم يا عزيزى . أورثني أبي نفس ما سأتركه لك . لا أكثر ولا أقل ، عندما دنا أجله رحمه الله ، طلبني ، وسألني قائلا : يا بني العزيز ، على طول ما ذهبت إلى الكتاب ، هل تعلم كم عدد الحروف الموجودة في العالم ؟ ومما لاشك فيه أنني لم أكن أعلم . هذا معلوم ، فخجلت من نفسي وطأطأت رأسي ، وآنذاك واصـــل أبي الحديث وقال : " لا يا عزيزى ، أنت تعلم ، لكنك لا تفهم ماذا كان قصدى ، كنت أقصد أن كل حروف الدنيا إثنان وثلاثون حرفا ، من الألف إلى الياء ، من أول الكلام إلى آخره ، والآن هل فهمت ؟ أريد أن أقول أن ما أنزله الله وكتبه الرسل في الكتب السماوية ، حتى الكلمات التي قالها الفلاسفة ، واستخدمها الشعراء كحروف روى في

دواوينهم ، حتى ما تقرأونه أنتم أيها الأطفال في الكتاب ، وما كتبته طوال عمرى للزبائن ، كل كلام العالم وأقواله شكلت من نفس هذه الحروف الإثنين والثلاثين ، وبكل لسان تكتب به تركيا كان أو فارسيا أو عربيا أوإفرنجيا . لأفرض أن هناك حرفين زائدان أو حرفين ناقصان ، لا فرق في أصل الموضوع . كل ما هو سب وشتم ، كل كلام مقدس لدينا ، حتى إسم الله الأعظم الذى يدعى الدراويش أنهم توصلوا إليه ، كل هذا الكلام يكتب من نفس هذه الحروف الإثنين والثلاثين . كنت أريد أن أقول معاذ الله أن يغشي هذا العلم القليل الذى لديك عينيك فتدوس الحق بقدميك ، وتذكر أن هذه الحروف هى أيضا أداة عمل الشيطان ، فبها تكتب أحكام إعدام جميع الأبرياء والمذنبين أيضا . والآن والأمر كذلك حذار أن يجرى قلمك بما هو غير الحق ، وأن تصبح هذه الحروف في يدك أو على الصفحات التى تكتبها أداة لعمل الشيطان " .

وبعد أن انتهى ميرزا من كلامه ، التقط أنفاسه ثم قال :

– نعم يا بنى العزيز ، كانت هذه هي وصية أبي ، وكان هذا ميراثه لي لأنني كنت ولده الوحيد . لكنني عندما استمعت إلى هذه الوصية كنت في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين من عمرى ، وأنت الآن في الثانية عشرة من عمرك لا تزيد ، لكنى أردت الآن أن أقولها لك ، ومن الممكن ألا تفهم الآن ما قاله أبي لي ، لكن عندما تصل إلى سني وتجلس إلى هذه الأدوات ، سوف تفهم أى ميراث تركه لي أبي وسأتركه أنا بدورى لك . والآن تحرك حتى أنجز هذا العمل سريعا ونذهب .

وبمجرد أن انتهى ميرزا من كلامه ، غرق حميد في التفكير ، وعاد ميرزا ثانية إلى كتابة الواجبات ، فأتم ما تبقى على عجل ، وجمع كل شيء ووضعه في منديل مربعات يزدى أخرجه من جيبه . وبينما كان يمشي في طريقه ، قابله صبي ميرزا عبد الزكي ، وقال : " يقول سيدى لك أن تشرفه قليلا عند ذهابك " وأجابه ميرزا " سلم على سيدك ، وقل له سمعا وطاعة ، سأشترى الخبز واللحم للأولاد ، وآتي حالا " وهكذا فعل. وضع فرشه داخل خزانة أحذية المسجد ، وذهب إلى السوق ، واشترى الخبز واللحم اليومي من الخباز والقصاب المجاورين ، ووضعهما داخل نفس المنديل المربعات اليزدى ، وأعطاه لحميد ليذهب مباشرة إلى البيت ، وذهب هو إلى رفيقه .

يا أعزاء القلب ، كما علمتم كانت تحدث أمور من هذا القبيل ، فكلما كان يعن عمل مشترك بين الكاتبين ، كانا يجتمعان في مكتب ميرزا عبد الزكي ، إذ لم يكن لدى ميرزا أسد الله مكان محترم ، وخاصة إذا كان الوقت شتاء ، وكل وخز برودة العالم ينتشر داخل فناء المسجد ، ويعبر الدهليز ، وينتشر في السوق ، وأيضا إذا كان الأمر يتم بعد العمل اليومي ويتبادلان البوح بالهموم ، وبخاصة أيضا بعد هذا الحوار مع حميد ، والذى كان قد جعل ميرزا أسد الله منهكا بشكل سيئ .

كان ميرزا عبد الزكي قد أضاء المكتب بمشكاة واحدة ، وأمر فأعد الماء والشراب ، ووضع حشية إلى جواره من أجل ميرزا أسد الله .

وتبادلا السلام والتحيــــة ، وجلس ميرزا ، وبعد المجاملات المعتادة ، بدأ ميرزا عبد الزكي في الحديث قائلا :

- حسنا يا عزيزي .. ما الأخبار وكيف الأحوال ؟ ماذا تظن عاقبة هؤلاء الدراويش وإلام تتطـــــور ؟

قال ميرزا أسد الله : وإلام تريد أن تتطور الأمور ؟ الحكاية وما فيها أن الناس قد وجدوا وليــــا جديدا ويبحثــــون عن معجزة .

قال ميرزا عبد الزكي : أنا غير متفائل ، لكن ما أعرفه أن عملنا كسد هذه الأيــــام ، فما يتوسل إليه االناس الآن يا عزيزي هو تكيــــة الدراويش ، لا حرز الجواد .

قال ميرزا أسد الله :- أنت أيضـــا كل ما تفكر فيه هو مصلحتك. أليست خســـارة ؟ حتام تعتبر رواج مهنتك في فقر الناس وفي عجزهم ؟ مما لاشك فيه أن الناس يلجأون إليك عندما لا تطول يدهم مكانا آخر .

قال زميله : ومتـــى يلجأون إليك ؟

أجاب ميرزا أسد الله : إليّ ؟ عندمــــا يكون شقاؤهم قد بدأ لتــــوه . حتى ذلك الذى يريد أن يرسل خطابا إلى القريـــــة ، يريد أن يبوح بهمه ، فما بالك بمن كانت لديه عريضة شكوى . لكن إذا كنت أنا أول شقاء الناس فأنت آخــــره .

قال زميله : ها أنت يا عزيزى قد خضت في كلامك المعتاد . ليذهب الناس في داهية . اليوم يوم رائع فقد سقط زبون شديد

الإحترام في شبكتنـــــا . أتعرف من هو يا عزيزى ؟ عصرا جاءت زوجة ميزان الشريعة إلى هنا – أقصد زوجته الأولى – لا تعلم كم تحس بالحقد على زوجها . عين من دم وعين من دمع . كانت تريد حجاب محبة يا عزيزى ، حتى تسقط ضرتها الجديدة من عين زوجها . والآن أعلم أنك سوف تعود إلى وعظـــــي . ولكن عندما يظن الناس وهم في مثل هذه البلايا أن نتيجة تتأتى من حجابك ، ما ذنبك ؟ الغرض ، وأنت تعلم دخلنا ، لقد جاءت ونقلت إلينا خبرا طيبا .

سأل ميرزا أسد الله متعجبا : لنا ؟! يعنى ماذا ؟

قال ميرزا عبد الزكي : إصبر دقيقــــة واحدة ، لا بد أنك تذكر أنه في الأسبوع الماضي بالتحديد ، قد حدث ثم نزاع بشأن تقسيم تركة الحاج ممرضا بين أولاده ، وتعلم أنهم تصالحوا في النهاية ، لكن لست أظن أنك تعلم من أصلح بينهم ، وذلك من شدة ثقتك في ميزان الشريعــــة .. نعم يا عزيزى ، لقد تدخل سيدنا بنفسه وأصلح بينهم . لكن بشرط واحد ، وهذا هو مربط الفرس ، والشرط هو أن توقف ثلث تركة الحاج .. هل فهمت الآن يا عزيزى ؟ وهم بدورهم رضـــــوا . كانت زوجة ميزان الشريعة تتحدث في هذه الأمور ، ثم وقبل وصولك مباشرة ، جاء مدير أعمال سيدنا وطلب منى أن أذهب إليه في منزله بعد صلاة المغرب ، وأظن أنه يريد منى أن أذهب لحصر تركة الحاج وكتابة المصالحة وما إلى ذلك . حسنا يا عزيزى .. أنت نفسك تشهد بأنه في أى وقت طالت فيه يدى شيئا ، لم أقصر في حقك ، واللهم لا منــــة ، وأظن أنها صفقـــــة ذات عائد مجز ، وقلت أنه لا يرضي الله ألا ينال

أطفالك نصيبا من الغنيمة[1] والآن قد أخبرتك بالأمر سريعا يا عزيزى حتى تتجهز ، وعندما يتحدد وقت السفر ، ننهض ونذهب معـــا وننجز المهمة ، فحتى أملاك الحاج أمامنا طريق يبلغ منزلا أو منزلين . الجميل في الموضـوع أن رئيس شـرطة الحى سـوف يصـحـبنا ، وفـرصـة أن تصفيــا ما بينكما من مشاكل قديمة ، كما أن الأمر نفسه فتح باب أيضـــا يا عزيزى مع ميزان الشريعـــة .

قال هذا وسكت ، واستغرق ميرزا أسد الله تماما في التفكير ، ثم رفع رأسه ، وحملق في زميله وقـــال :

– أطال الله عمرك يا جناب السيد ، فأنت دائم التفكير فينا ، لكنى أظن أن ميزان الشريعة لا يقبل تدخلى هكذا في العمل مع ما بيننا من حساب صغير قديم ، ولا بد أنك لم تنس موضوع وصية الحاج عبد الغنى ؟

قال زميله : وهل من الممكن أن أنساها يا عزيزى ؟ لكن قصدى أنك لا بد وأن تشارك ولنفس هذا السبب في هذا العمل .. وما لزوم أن يعرف أحد ؟ إنك تتعاون معي ، فما دخل ميزان الشريعـــة ؟ أليس كذلك يا عزيزى ؟ من الممكن أن أخبره عندما ينتهي العمل على خير . وآنذاك سوف يشكرك أنت أيضـــا . وهل أستطيع أنا وحدى أن أنجز هذه المهمة والحاج المرحوم كان يملك مئات الآلاف ؟

وكان ميرزا أسد الله لا يزال يحملق مشدوها مبهوتا في نقطة واحدة ، ففاجأه قائلا :

---

(١) حرفيا : ينال أطفالك من هذا اللباد . المترجمة .

– قل لي ، ولأر يا جناب السيد ، من متولى هذا الوقف ؟

قال زميلـــــه : حسنـــــا ، معروف يا عزيزى .

كان كاتبانا منهمكين في الحديث ، إذ فتح باب المكتب فجأة ، ودخل منه قروى زرى الهيـــئة ، وعلى سبيل التحية أطلق صيحة منكرة ، ووضع حذاءه تحت إبطه ، وجلس إلى جوار الباب ، ولم يكد ميرزا عبد الزكي يسأل أخانا عما حل به حتى ارتفعت صيحاته قائلا :

– خراب يا بلد .. لقد أخذوا بغلي للسخرة منذ ثلاثة أيـــام ، ولا يوجد في هذه المدينة من ينجدني ، وكل من يسمع بأمرى ينصحني بالصمت .. في النهاية لماذا ؟ ماذا فعلت ياترى ؟

ارتفع صوت ميرزا عبد الزكي الذى لم يكن ينتظر مثل هذا التطفل قائلا :

– بهدوء يا حبيبي .. تراك دخلت إلى الخلاء .. ياللا .. مع السلامة .. ربنا معك .. يا عزيزى ..

تحـرك القـروى في مكانه ، وصـاح : – إذن ، ألا يوجد في هذه المدينة رجلٌ رشيد ؟

عندما رأى ميرزا أسد الله أن أخانا في ورطة شديدة ، تدخل وقال لزميلـــــه :

– يا سيدى ، دعنا نعلم ما هي شكواه ، أظن أن له شأنا معي ، وأنا أتعامل مع هذا الصنف من البشر من الصباح وحتى المساء .

ثم التفت نحو القروى الذى كان قد هدأ قليلا وسأله :

– حسنا يا عزيزى ، قل لي ولأر : كيف أخذوا بغلك للسخرة ؟ هل أنت مدين ؟ أو لعلك لم تدفع مكوس البوابة ، الخلاصة : ماذا فعلت ؟

أخرج القروى حذاءه من تحت إبطه ، ووضعه على الأرض بجواره، وصاح قائلا :

– ومن أين لي أن أعلم ؟ كنت قد أحضرت حمل جبن ، لأبيعه وأشترى بثمنه دمورا وبوبلين من المدينة ، وبمجرد أن ذهبت إلى السوق وعدت ، رأيت أن بغلي المتعوس غير موجود ، فذهبت ووقعت في لحية صاحب الخان متسائلا : وأين بغلى ؟ فأخذ يقول لي لا علم لي ، فأقول له : في النهاية يا إبن الكلب ، إذا كنت لا تعلم فكيف تدير خانا ؟ وآنذاك تقاطر على جمع من الناس وأوسعوني ضربا .

ثم عرض كيف أنه ظل ثلاثة أيام يبحث عن بغله من باب إلى باب ، حتى وصل الليلة متعبا مهدود القوى إلى المسجد ، ليستجير بالله وبالرسول ، وبعد صلاة المغرب ، أوصاه الذى بجواره أن يذهب إلى ميرزا أسد الله . وما إن انتهى من كلامه حتى سأله ميرزا أسد الله قائلا :

– هل تتذكر أوصاف بغلك ؟

صاح القروى : حتما أتذكر ، فأنا أملكه منذ أربع سنوات .

قال ميرزا : حتى تذكر أوصافه ، عليك أن تتذكر أننا هنا في المدينة ، وعندما تصيح يعرفون أنك قروى ، وحينذاك يخدعونك . فتكلم

بهدوء مثل أهل المدينة تماما .. هل تعلم ماذا يعنى قطع الرأس بقطنة ؟ هيـــا .. أذكر لي الآن أوصافه ..

ضحك القروى ، وتحرك وقال : الله يرحم والدك .. أنهي إلى مقام سعادتكم أن بغلى أحمر قان ، وذيله خالي من الشعر، وكنت قد وسمت جبهته بخال كالجوهرة .. ثم ، أقول لسعادتكم أن إحدى أذنيه مثقوبـــة ، أذنه اليســـرى ، عندما كان صغير ثقبتها أنا بنفسي ، وحافره الأيمن مشقوق ، كما أرفع إلى عظمتكم .. هيه يا عزيزى .. هذا يكفي ، فبغل الملك نفسه ليس لديه هذا القدر من الأوصاف ..

ضحك الرفيقـــان . وقال ميرزا أسد الله : لا بد أنهم الآن قد قلموا لك حافره ، ومن الجائز أن يكونوا قد ركبوا له حدوة .. أما الأوصاف الأخرى فلا يمكن تغييرها بهذه السرعة .. قلت أنهم أخذوه منذ ثلاثة أيام ؟ حسنا . والآن قل لي : ماذا فعلت بالجبن ؟ بعته أم لا ؟ .....

قال القروى : يا أخانا .. أنت أيضا تلحف في السؤال [1] .. لا أراك الله سوءا ، لي ثلاثـــة أيام لم أذق طعاما ، فأى حمار يترك بغله ويذهب لبيع الجبن ؟!

قال ميرزا أسد الله : حسنـــا .. الآن وحتى أكتب لك شكوى ، تهلل في وجه هذا السيد المحترم فهو صاحب المحل ، وكلانا ضيف عليه .

وتركهما لحالهما ، وانشغل بكتابة الشكوى للقروى ، وعندما أنهى كتابتها قرأها مرة بصوت مرتفع كعادته ، ثم طواها وأعطاها للقروى ، وقال :

(١) حرفيا : تسأل عن أصول الدين . المترجمة .

– إفتح أذنيك جيـــدا ، تبيع من حمل جبنك عِدلا حتى تكون في يدك نقـود ، وتحـولها كلها إلى نقـود " فكة " ، وبداية من حـارس البـاب حتى حاجب غرفة رئيس الشرطـــة ، في البداية تضع في يد كل منهم قرشا ثم تقول ما لديك حتى يفتحوا لك الطريق ، والعِدل الآخر تضعه على كتفك ، وتحمله مباشرة إلى حضرة رئيس الشرطة ، وتعطيه إياه مع هذه الشكوى حتى يردوا عليك بغلك ، وكما كتبت لك في هذه الشكوى ، تقول أن زوجتك كانت مريضــــة ، وأنك كنت قد حضرت لعرضـها على الحكيمباشي ، وليس لديك الآن مطية للعودة بها ، وإن شاء الله في المرة القادمة أحضر لك حمل زبيب و .. كلام من هذا القبيل الذى قلتـــه لك .. ولا شك أنني كتبت كل هذا ، لكن عليك أن ترويه بلسـانك ، وفي المرة القادمة ، إحرص على ألا يكون لك عمل في المدينة . !!

وارتفع صوت القروى الذى كان مبهوتا :– لماذا ، الخلاصة لماذا ؟ هل سرقت مال أحد ؟

وفي النهاية أفهمه كاتبانا أن كل هذا من المتبع في المدينة ، ومن سـوء حظه أن حكومة هذه الأيـــام تأخذ كل دابة للسخرة ، وأنه إذا أراد أن ينعم بوصال بغله ، عليه أن يغض الطرف عن عِدل من جبنه .. وكلام من هذا القبيل .. وفي النهايـــة قنع القروى ، ونهض مغمغما والشكوى في يده ، وأوشك على المضي . ونظر ميـرزا عبد الزكي إلى رفيقه الذى كان قد سمر عينيه صامتا على ورود السجادة ، وقام نصف قومة ، ونادى قائلا :

يا مشهدى ، أين أجر الكتابة يا عزيزى ؟

إذ أمسك ميرزا أسد الله بيد رفيقه ، وقال :

– أترك المسكين .. أعندك صبر ؟

جلس ميرزا عبد الزكي ، وتاه القروى وسط ظلمة دهاليز المسجد .. وتنهد ميرزا أسد الله وقال :

– أرأيت يا سيد إلى أى حد ساءت الأحوال ؟ في مثل هذه الأيام عندما تتدخل قدم رئيس الشرطة في صفقتك ، فمن حق المرء أن يرتاب ، وأن يسأل نفسه : ترى ما هو المخبوء خلف هذا الظاهر ؟[١] وأظن أن لرئيس الشرطة نصيبا من صفقتك .. هذا ما لاشك فيه .

أجاب زميله : كم أنت متشائم يا عزيزى !! قلت أن متولي الوقف هو ميزان الشريعة نفسه ، وإذا أتي رئيس الشرطة بصحبتنا ، فلعل الأمر يحتاج إلى مساعدته .. في النهاية أن هذا الصنف من الصفقات يكون في زماننا قبض ريح ما لم يُكتب يا عزيزى ، وكل واحد من الطرفين يمكنه أن ينكص عنها في لحظة ، لكن – يا عزيزى– عندما يكون ممثل الحكومة في رفقة المرء ، لا تكون هناك الجرأة على ارتكاب هذه السخافات .

استغرق ميرزا أسد الله في التفكير ثانية ، ثم سأل بعد لحظة :

– هل أنت متأكد أن الأمر على هذا النحو ؟ وفي النهاية : ما هو نصيب رجال الدولة ؟

---

(١) حرفيا : أى نصف طبق تحت هذا الطبق ؟ . المترجمة .

أجاب زميله قائلا : لقد شاب شعرنا في هذا العمل يا عزيزى ؟ الخلاصة إن لم أكن أنا متأكدا ، فمن يكون المتأكد ؟ وأساسا : ما دخل رجال الدولة في هذا الأمر يا عزيزى ؟

قال ميرزا أسد الله : على كل حال ، إن الدب لم يُصد بعد . وعلى كل حال إذا كان الأمر على هذا النحو الذى تقوله ، فما المشكلة هنا ؟ ولو خطر ببال معاوية بن أبي سفيان أن يسير خطوة في سبيل الله ، هل تجوز مساعدته ؟ أجل ؟

قال زميله : أتعلم يا عزيزى ؟ إن ميزان الشريعة ليس سيئا إلى هذا الحد الذى تتصوره ، ثم : أى دخل لنا بما يختفي خلف ظواهر الناس ؟ وهل يبوح الناس بواحد في المائة مما في قلوبهم ؟ ولماذا تبعد يا عزيزى ؟ خذ زوجتى مثلا ، يعلم الله يا عزيزى أنني أموت كمدا منها، ولا علم لي بما يدور في رأسها ، والآن موضوع الطلاق مطروح بيننا ، والمهلة أسبوع ، وأنا لا أخفي عليك شيئـــا يا عزيزى ، فالشيطان يوسوس لي قائلا : هيا ، إذهب إلى ميزان الشريعة وخلص نفسك من شرها ، هيـــا ".

قال ميرزا أسد الله : يا سيد .. أى كلام هذا ، بعد ثمان أو عشر سنوات من الحياة الزوجية عيب أن تتفوه بمثل هذا الكلام .

قال زميله : وهل تعرف هذه المرأة معنى العيب يا عزيزى ؟ مهما أقول: يا إمرأة .. ربما لم يشأ الله ، ربما يكون من مصلحة المرأة أن تبقى بلا أطفال ، وهل هذا يؤثر فيها ؟ مهما أقول لها : يا عزيزتي ..

أنظرى إلى حياة ميرزا أسد الله ، واعتبرى أولاده أولادك .. أنظرى .. بعد كل هذا العمل الشاق لم يستطع حتى الآن أن يقتني لنفسه حانوتا .. لماذا ؟ لأن كل ما كسبه يا عزيزتي أنفقه على أولاده .. لكن يا عزيزى .. هل تفهم هذا الكلام ؟ سبعة أيام في الأسبوع شجار بيننا بسبب عدم الإنجاب ، صدقنى يا عزيزى : الآن لي أسبوعان وأنا لا أجرؤ على تناول طعام في بيتي من كثرة ما تضع في طعامي من أعمال السحر والشعوذة ، وإن يكن قسمي بحياتك أقسم بروح أبي ، أن كل يوم يختلف مذاق طعامها عن سابقه ، هذه الحيزبون ظنت أنها من الممكن أن تبيع الماء في حارة السقائين[1] ، فمن مذاق طعامها أعرف أى سم زعاف دسته فيه . والآن لي أسبوعان وطعامي من كباب السوق فحسب، صبحا كباب ومساء كباب ، وفي البيت أتجنب شرب كوب من الماء . في النهاية فقدت الثقة يا عزيزى .. أتكون هذه حيـــاة ؟ لا تجرؤ داخل منزلك أن تطفح بالسم الهارى لقمة واحدة ؟! وأخيرا راسها وألف مركوب قديم[2] : الآن ومن كل بد نقوم ونذهب إلى حكيمباشي البلاط .. والآن على أن أكون ساذجا ، والآن يا عزيزى وقد دقت على هذه النغمة . حقا إن الطبيب طبيب ، لكن حكيمباشي البلاط هذا من ربائب نعمة

---

(١) حرفيـــا : تتشقلب أمام البهلوان وهو التعبير المقابل في اللغة الفارسية. المترجمة .

(٢) حرفيا : وضعت قدميها في فردة حذاء واحدة وهو التعبير المقابل في اللغة الفارسية .

لخانلر خان مقرب الديوان ، تريد أن تحملني إليه لكي تجعل منه أحد شهود طلاقها ، وتقول : والآن يا عزيزى إن لم تكن واثقا في علاجي فاذهب وعالج نفسك ، والحق معها... يا عزيزى منذ بداية هذا الأسبوع والشجار دائم ، وديني وإيماني إنها قالت : أمامك مهلة أسبوع ، وإلا أقوم وأمضي إلى دار أبي ، والآن : قل لي يا عزيزى ماذا أفعل ؟

هز ميرزا أسد الله رأسه وقال : الأمر بسيط للغاية . قم فلنذهب إلى الحكيمباشي الخاص بنا ، فلا ضرر في هذا ، والطبيب طبيب ، وسترضى زوجتك بهذا .

قال زميله : هه يا عزيزى ، هذا في حد ذاته هو دائي الذي لا دواء له ، أنني لا أستطيع الذهاب إلى خان دايي ، ألست تعرفه؟ ، إنه شخص صفراوى ، وألست تعلم ما يكنه لي من حقد ؟ وإن قمنا يا عزيزى وذهبنا إليه وصار معلوما أن .. هه أى علم لي بالنتيجة يا عزيزى .. أتتذكر ماذا حدث ونحن في السنوات الأخيرة من الكتاب ؟ تلك الخادمة التي عقدوا عليها عقد زواج متعة بي ؟ ربنا يذلها .. أخشى أن يكون ما بي مما أعطتني إياه الله يجحمها ظلت تغويني .. يا عزيزى .. كم من مرة بعد الظهر في أيام الصيف كانت تنزل إلى الحوض عارية أمامي ، حتى فقدت إرادتي .. وحدثت الفضيحة التي تعلمها .. ليتها كانت قد ماتت فجأة ولا أضطر إلى زواج متعة بها طيلة أربعة شهور ، الحقيقة يا عزيزى أننى من نفس هذه الشهور الأربعة ، فهمت أية مصيبة نزلت برأسي ، وعندما أرسلتها إلى أبيها في القرية ، شمت أمي خبرا ،

وأخذتني إلى خان دايي خالك ، وأطال الله عمره ، أنقذني تماما .. لكن ماذا يخفى عليك يا عزيزى .. أخشى أن يكون هذا العقم نتيجة لهذه الشهور الأربعة .. إذا قمنا الآن يا عزيزى ، وذهبنا إلى الحكيمباشي ، وصار معلوما أن الأمر كذلك .. حينئذ أية فضيحـــــة آتي بها إلى نفسي ؟ وإذا كنت أنت موجودا وقيل هذا الكلام أمامك وقمت بنقله لزوجتك يا عزيزى ؟ ناهيك عن كونها امرأة من أهل خانلرخان ولها ألف خاطب .. وآنذاك : إن فقدت زوجتك أى فضيحة تقع على رأسك يا عزيزى ؟

تحرك ميرزا أسد الله وحك قدمه اليمنى قليلا وقال :

– أولا : من أين يكون معلوما أن الأمور ستكون كما تقول ؟ ثانيا: قيل من قديم الأزل أن الطبيب هو كاتم أسرار المرء ، وإذا كان الأمر قد نفذ ، فإن خان دايي رجل يعرف أن الله لا يرضى أن تسوء العلاقة بين رجل وزوجه إذا تحدث . إذا شئت فلنذهب سويـــا إليه حتى تعرض عليـــه الأمر برمته ، وأنا أيضـــا سوف آخذ عليه عهدا بأن ينسى ما مضى ويعالجك .

قال ميرزا عبد الزكي : تحمل هذه المشقـــة من أجل رفيقك أدعو لك طوال عمري ، وصدق يا عزيزى أنك تنقذني من شقاء مقيم . ويعلم الله سبب ما أنا فيـــه .. ومن الجائز أن يكون العيب من المرأة نفسها يا عزيزى .. أليس كذلك ؟ والحكيمباشي يستطيع أن يفصل في هذا الأمر أفضل من أى شخص آخر ، في ذلك الوقت نستطيع أن نطلب منه

أن يرسلها إلى قابلة .. أليس كذلك ؟ فليس العيب يكون في الرجال فحسب يا عزيزى ، والآن قل لي .. ألا تستطيع أن تدعوه إلى بيتك ؟

قال ميرزا أسد الله : أنت تعلم أنني لا أملك أكثر من غرفتين ، ولا شك أني لا أقصد الحرج ، فأنت تعلم كل شيء عني ، وهو أيضا خالي ، وربما يريد فحصك في مكان خال ، ومن الأفضل عندما يريد المرء الطبيب أن يذهب إليه في عيادته ..

ثم سكت، وهز رأسه أكثر من مرة وقال :

– ليكن .. هذا من أجل خاطرك ، غداً صباحا سوف أخلي البيت ، سأرسل الأولاد خارجه وأقول لخان دايي أن يأتي مبكرا .. لكن إياك أن تعطله .

وهنا انتهى الحديث بينهما ، وودع كل من كاتبينا الآخر . وبمجرد أن خرج ميرزا أسد الله من المكتب ، ذهب رأسا إلى بيت الحكيمباشي ، وسلم على زوجة خاله ، وكتب عدة كلمات لخاله الذى كان قد ذهب لعيادة مريض ولن يعود بسرعة ، ثم ذهب إلى بيته . وتناولوا العشاء ، وذهب الطفلان إلى فراشهما . وحدث ميرزا أسد الله زوجته بكل ما حدث وحتى هموم ميرزا عبد الزكي وما اتفقا عليه من أجل صباح اليوم التالي مع الحكيمباشي . ثم سألها بعد ذلك عما هو موجود من أرز وسمن في البيت ، وما يجب على زوجته أن تفعله في غيابه ، ثم قال :

– أتعلمين يا امرأة ؟ إن الفراغ يؤذى زوجة زميلي ، يجب أن

تشغلي يدها بعمل .. تنهضي عند استيقاظك وتذهبين إليها ، وتدفعينها إلى نصب نول لنسج السجاد في منزلها ، وتقومين أنت بمساعدتها .. وبمجرد أن تمسك بطرف خيط العمل ، فقد انتهى كل شيء ، هل فهمت؟ وهذا منذ صباح الغد ، لأن خالي سوف يحضر ليفحص ميرزا هنا .

ثم نام الزوجان وهما في غاية الصفاء .

(٤)

المجلس الثالث

يا أحباء القلب .. غداة ذلك اليوم خرجت زرين تاج هانم من البيت بصحبة حميد وحميدة . اتجه حميد إلى الكتاب ، وقرأت السيدة زرين تاج دعاء ونفختـه في باب المنزل ، وعندما أغلقتـه بالمزلاج أوصت به إحدى جاراتها ، وأخذت بيد حميدة ، واتجهت إلى منزل ميرزا عبد الزكي . عبرت الأم والابنة من حارتين داخليتين وسوق ، وبعد ربع ساعة وقفتا خلف باب كبير به رؤوس مسامير على هيئة ورود نحاسية ، وقرعتا الباب . وإلى أن فتح الباب ، التفتت زرين تاج هانم إلى حميدة وقالت :

-فهمت يا حبيبتي ؟ أريد منك أن تلفي وتدوري حول درخشنده هانم ، وتخيلي أنها خالتك ، ولا تنسي أن تقبلي يدها ..

عندما فتح الباب ، اصطحبتهما الخادمة البضة إلى غرفة الضيوف التي كان الكرسي قد نصب فيها في ذلك الوقت المبكر ، وإن لم يكن قد أوقد بعد . أخذت الخادمة عباءة زرين تاج هانم وطوتها ووضعتها داخل بقجة ووضعتها على الرف ، وأحضرت طراحة منزلية ، وقدمت لهما النُقل ، ومضت لتخبر سيدة البيت . وظهرت سيدة البيت أى درخشنده هانم

بعد ربع ساعة . وتبادلنا التحيات والسؤال عن الأحوال . وقامت حميدة بالواجب ، وبعد أن انتهت التحيات المعهودة و عبارات من قبيل " عجبا أن خطرنا ببالك " ، وضعت درخشنده هانم حبة من النقل في فم حميدة وأجلستها فوق ركبتها ، وبدأت زرين تاج هانم في الكلام :

– ماذا يخفى عليك ؟ عندما كبر الأولاد وقلت احتياجاتهم ، ملأتني البطالة بالأفكار والهموم ، صرت – بعيدا عنك – موسوسة ، قابعة في البيت وراء وساوسي ، والوساوس تجعل من الحبة قبة[1] لماذا تأخر ميرزا الليلة ؟ لماذا كانت حصيلة اليوم أقل ؟ لماذا يريد أن يقوم ويسافر؟ وأشيـــاء من هذا القبيل ، بعيد عنك ، لي فترة وأنا على هذا المنوال . في النهاية جلست مع نفسي وفكرت قائلة : الخلاصة ، هذا لا يحتمل ، وقلت لنفسي : يا امرأة ، أنت الآن في بداية حياتك ، وعليك ألا تصيبي نفسك بالجنون بهذه الأوهام ، وتعجزين نفسك ، انهضي ، ودعك من هذا، وقومي بعمل ما .. وأنت أيضا تعرفين نسج السجاد .. ويرحم الله كل من مات ، فأمي الحبيبة تعبت كثيرا إلى أن علمتني هذا الفن .. القصد أنني فكرت في هذا منذ فترة .. لكنى أرى أنه في جحر الفأر الذى نعيش فيه لا يوجد لدينا مكان لهذه الأعمال الضخمة . ثم إن ميرزا أسد الله لايملك شروى نقيـــر[2] ، فما بالك بشراء الصوف والغزل ، وكان أن خلوت لنفسي ثانية وقلت : حسنا يا امرأة ، انهضي واذهبى إلى

---

(١) حرفيا : تجعل من الأوزة مائة . المترجمة .

(٢) حرفيـــا : لا يملك آهة يتاجر فيها مع نواح . المترجمة .

درخشنده هانم ، سلمي عليها ، واسأليها عن أحوالها ، ثم حدثيها عن الأمر بصراحـــة ووضوح ، فعندها - والحمد لله - المكان والنقود ، ثم إن قلبها رحيم ، ولا شك في أنها سوف تساعدك ، أنصبي نولا داخل إحدى غرف منزلها ، وعليك العمل ، ورأس المال على درخشنده هانم .. وقومي بتجارة محترمة .. ومن هنا جئت إليك .

وبدلا من أن تجيب درخشنده هانم ، وضعت في فمها حبة نقل ، وقدمت حبة أخرى إلى زرين تاج هانم ، ولم تكد تقول شيئـــا ، حتى واصلت زرين تاج هانم كلامها :

- وحياتك - ليس هذا فحسب - بل وحياة ولدى ، إن أهل السوق ما فتئوا يلحون على ، لكن لو تعلمين مدى تزمت زوجي ، إنه لا يقبل أن أذهب إلى منزل أحدهم لأنسج السجاد وأشغل نفسي ، ومهما أقول له : يا رجل ، خسارة أن أنسى هذه الصنعة ، ثم إنها ذات عائد وإن كان قليلا ، إلا أنه يساعد في معاش الأولاد .. فهل أثر فيه الكلام ؟ في النهاية خطر لي أن ألجأ إليك . تعلمين أنه ليس بين زوجي وزوجك أى سر . وهو لا يستطيع أن يتعلل هنا . وكان أن قلت : لأنهض وأذهب ، على بركة الله ، لألجأ إلى درخشنده هانم .

كان النقل لا يزال بين شدقي درخشنده هانم ، وهي تنصت ، فابتلعت ريقها وقالت :

- والله ما عندى أى مانع .. لكن يا زرين تاج يا حبيبتى ، يعلم الله إلى ماذا ستؤول نهايتي مع هذا الرجل القدم .. مع هذا الخسيس ..

وأنا غير مطمئنة على غدى .. وأيضـــا مع عدم وجود أطفـــال .

قاطعتها زرين تاج قائلـــة :

– يا أخـتى .. في أى شيء تفكرين ؟ أنظرى إلى شكلي ، هل يصدق أحد أنني امرأة في الثلاثين ؟ لقد قال القدماء أنه في كل ولادة يتهدم عماد من أعمدة الجسم ، فما بالك وقد وضعت ست أو سبع مرات، وأيضا بأى ذل وشق أنفس !! وتصـــل روح المرء إلى الحلقوم حتى يعيش أحدهم وينجو بحياته من الحصبة والسعال الديكي والإسهال الدمـوى .. وهل ظننت أن زوجي قد توجنى بإكليل من الزهور ؟ وهل يوجد من بينهم من هو نسيج وحده ؟ كلهم على نمط واحد .. كلهم مجرد كرش على المائدة .. الفرق أن أحدهم جيبه " مخروق " ، والآخر لا جيب له أصـــلا .. وإن ربطت الواحدة مصيرها بهؤلاء الأزواج ، فسوف تصاب بالشيخوخة مثلي .. ليست الخسارة على شبابك يا أختى ، ولا يحدث دائما أن تكون المرأة مع زوج .. والله يعلم ما سيأتي به الغد ، يرحم الله أمي ، عندما ماتت ، كنت أكاد أجن مع زوجة الأب البشعة التي بليت بها ، لكنى عندما كنت أجلس أمام النول ، كانت كل المتاعب والمشاكل تصبح بقدر عقدة سجاد تعقد ما بين الخيوط .. ولو لم يكن هناك نسج سجاد لكنت قد مت حزنا وكمدا على فقد أمي .

أخذت درخشنده هانم تلين قليلا قليلا وأجابت قائلة :

– في النهـاية يا زرين تاج .. سـوف يجلس الناس في النهـاية ويتهامســـون قائلين : إن فلانة تعمل بنسج السجاد ، حقا إن هذه

الأعمال لا تقلل من سيادة سيدة ، لكن هناك أيضـــا خانلرخان مقرب الديوان ...

قاطعت زرين تاج هانم درخشنده هانم وقالت :

– يا أختي .. كيخسرو نفسه مع كل أبهته وعظمته ، عندما مر بأرض الروم كـان يتكسب من الحـدادة ، ثم إنك إن شـاء الله عندمـا تصبحين أستاذة ، ويكون بمقدورك قراءة التصميم ، سترين كيف سيأتون ويتوسلون إليك – أبعد الله عنك كل سوء – فأنا الناسجة وأنت التي ستشرفين علي ، والحمد لله ، لست محتاجة أو عاجزة .. وأطال الله عمر السيد الذى تساوى شعرة واحدة منه كل الأزواج ، فهو سيد من نسل آل البيت ، بركة الدهر .

ولانت درخشنده هانم من جراء هذا الكلام ، وفي النهاية وافقت . ثم نهضتا وذهبتا لتفقد غرف المنزل ، واختارتا غرفة بجوار الحوض منعزلة وهادئة وفيها كوة . وعلى الفور أرسلتا الخادمة لتحضر النجار الموجود على ناصية الشارع ، وقرر النجار أنه في خلال يومين سيتم تركيب النول ، وقررتا أن ينظر ميرزا عبد الزكي الطالع ، بحيث تبدأن في يوم مبارك وساعة مباركة في نسج سجادتين صغيرتين ذواتي صـــرة .

يا أعزاء القلب .. والآن اسمعوا ماجرى بشأن كاتبينا العزيزين . ما إن خرجت زرين تاج هانم مع الطفلين حتى وصل ميرزا عبد الزكي . وكان باب المنزل مفتوحـــا فاندفع مرة واحدة . وكان ميرزا أسد الله

جالسا بجوار شجرة نوار الليل الوحيدة في الحديقة الصغيرة وهو يستخرج منها بعض البذور . وتبادلا التحيات ، وبدأ ميرزا عبد الزكي في شرح ما جرى في الليلة الفائتة مع ميزان الشريعة ، وأنهما حددا يوم السفر ، إذ انصفق الباب ، ودخل الحكيمباشي مغمغما ومحدثا جلبة وارتفع صياحه قائلا :

– يا أهل الدار ، لماذا ترك باب هذه الخرابة مفتوحا على مصراعيه وكأنه باب الرباط ؟

وذهب ميرزا عبد الزكي إلى حجرة الضيوف ، وأسرع ميرزا أسد الله إلى الباب وأغلقه خلف خان دايي . ودخلا معا . وتبادلوا التحيات والاعتذار عما سلف ، ثم عرض ميرزا أسد الله الموضوع ، ولما كان الحكيمباشي رجلا مجربا وحاذقا وذكيا ، فقد سحب يديه على ركبتيه وقال :

–كنت أعرف .. نعم كنت أعرف أنك في النهاية ستمر بمغسلنا . . لكن اذهب واشكر الله أنك جئت قبل مجيء عزرائيل إليك ، وجئت بمحض إرادتك ، وإلا كنت قد عرفتك ، ولو كنت النبي الخضر ، وكان في أحجبتك وسحرك ماء الحياة .. ما كان لك خلاص من يدى هاتين . !!

وعندما رأى ميرزا أسد الله أن خاله قد بدأ ، تدخل قائلا :

– خان دايي .. أنت أيضا والله غير متسامح .: بالله ، وبرأس جده، أنه لم يعط أحد منذ فترة طويلة دواء يأكله .. وأنا شاهد . .

عبس خان دايي وقال لميرزا أسد الله :

– حسنا .. ذكرتني يا بني الحبيب .. فقد ذهبت ، وتعبت حتى وجدت وصفة جديدة لرفيقك .. ماذا تظن ؟ وصفة للمحبة مجربة جيدا . كانت في هامش أحد كتب الأدعيـــة .. دعني أجده ..

ثم بحث في جيوب قبائه ، وأخرج من جيب منها ورقة مطوية، وألقى عليها نظرة وقال :

– ها هي .. وجدتها .. ها هي الوصفة ..أنصت جيدا .. يجب أن تقول لزوجتك أن تحضر قميصا ، ثم تقوم بغسله بماء المغسل ، ثم تنشره على قبر قتيل حتى يجف ، ثم تأخذ وسخ ظفر ميت وتذيبه في ماء الزعفران ، ، وبمداد تحصل عليه بهذه الطريقة ، تكتب هذا الورد على أكمام القميص ، وتعطيها إياه لتلبسه .. خذ .. هذا هو الورد .

ومد الورقة المطوية إلى ميرزا عبد الزكي وقال :

– وإياك أن ترى السماء لونـــه !!

ضحكوا ثلاثتهم ، وأضاف الحكيمباشي قائلا :

– لا تتضايق منا يا جناب السيد .. أردت فقط أن أمزح .. والآن ، انهض يا ميرزا واذهب ، فجهز لنا الماء والعصير حتى نرطب أفواهنا .. ثم أرى مم يشكو عبد الله هذا ..خرج ميرزا أسد الله من حجرة الضيوف ، وذهب إلى خزان الماء ، فأحضر ماء باردا ، وبهدوء شديد أعد في حجرة المعيشة مشروب الخل بالعسل ، وبينما كان يبحث عن صينية ناداه الحكيمباشي . عندما دخل ميرزا، رأى رفيقه منتحيا جانبا

من الغرفة وهو شاحب الوجه تماما وفي حال لا يوصف ، فوضع دورق العصير في وسط الغرفة ، وجلس ، وبدأ الحكيمباشي في الكلام :

– أردت أن أقول هذا الكلام لرفيقك في حضورك .. فهو لا يعاني شيئا وهو سالم معافى تماما . أنت تعلم أنك في حكم إبني ، فأنت الوحيد الذى بقيت من نسل كل إخوتى وأخواتي ... وإن ابتليت بهذا الداء ، لا شيء يتأتى من يدى . أتفهم ما أريد أن أقول أم لا ؟ الله يعلم لماذا لا ينجب رفيقك ، وأنا أعرف تاريخ مرضه ، لكن عقلى لا يتوصل إلى شيء لعلاجه .

نظر ميرزا إلى رفيقه الذى كان قد أقعى وشحب لونه ، وكان قد سمر عينيه على زهور السجادة ... وقال :

– في النهاية يا خان دايي ، كنت قد وعدت ميرزا أنك سوف تنسى كل ما مضى ، وكل ما في وسعكم ...

قاطع الحكيمباشي كلام ميرزا وقال :

– هل جننت يا بنى الحبيب ؟ عندما كنت أفحصه نسيت أصلا أنه هو نفس الشاب الذى جاء إلى مع أمه منذ عشرين عاما .. وأساسا صارت عادة عندى يا بني العزيز ، عندما يدق نبض أحدهم تحت أصابعي ، أغمض عيني ولا يعنيني نبض من يكون ، إذ يكفيني أنه نبض إنسان ينبض . وأنا أقوم بهذا العمل منذ خمس وأربعين سنة .. ولا بد أنكما أيها الكاتبان قد جلستما وتخيلتما أنه لما كان أخونا هذا يكتب الأدعية ويطعم الناس السحر والشعوذة ، فلا بد أن قلبى مغلول منه أو

أنه يجعل عملي وهو الطب يكســـد .. انتبها ، إن نصف مرضاى في الأغلب هم أنفسهم الذين صارت بطونهم وأمعاؤهم عليلة نتيجة هذه الأصناف من أدوية عجائز النسوة وعلاجاتهم . نحن الأطباء نتكسب من بركـة جـهلكم .. ثم أى ضـيق يمكن أن يكون لدى منه ؟ إن الذنب في النهاية ليس ذنبه ، إن لم يكتب هو الدعاء يكتبه غيره ، والناس أنفسهم جهلة ، فهم لا يفهمون أن الطب مساعدة لعالم الخليقة ، ومادامو لم يفهموا هذا ، فإنهم يمضـــون ويسلمون أنفسهم إلى عمال الشيطـــان المأجورين .. فإذا كان كل رجال الدولة من المشعوذين والمنجمين وقراء الطالع .. ماذا يُنتظر إذن من الناس العاديين ؟

تدخل ميرزا أسد الله الذى كان يعلم إن خاله إذا انطلق في الكلام ، فإنه لا يقلع على وجه السرعة ، وســأل:

– حسنـــا يا خان دايي ، الآن تفضـــل وقل لنا ماذا عليه أن يفعـــل ؟ الخلاصة نريد وصفـــة ، أو دواءً أو علاجا أو أى شيء .

قال الحكيمباشي : يا بني العزيز ، أفضــــل أطباء المدينة لا يستطيعـــون أيضـــا عمل شيء . وأنا أيضـــا لي مكانتي . أحيانا في مهنة الطب هذه نصادف أشيـــاءَ تثبت عجز البشـــر ، فعندما لا يكون سبب العلة معلوما ، ماذا يتأتى من يد الطبيب ؟ ورفيقك لا يشكو شيئا في الظاهر ، وربما تحمل زوجته غدا .

قال ميرزا أسد الله :– الخلاصـــة يا خان دايي أن هذا السيد في ورطة شديدة . فزوجته بسبب هذا الأمر تتكد عليـــه ، ولا بد من عمل

شيء له ، أنت تعلم أنه عندما تيأس زوجة المرء ، تصل الأمور إلى مناطق حرجة .

كان ميرزا عبد الزكي لا يزال قابعا ، لا ينبس ، فألقى عليه الحكيمباشي نظرة وقال :

– كنت أستطيع أن أصرفه بقرصين . لكنك واسطة في الأمر يا بني ، فالعلاج والدواء ، أو المبهيات ، أو تغيير الزوجة ، ليس من المعلوم أى منها يمكن أن يكون علاجا له . الأمر هو ما قلت ، إلا أن يتولاه الله برحمته . وفي مثل هذه الحالات حدث كثيرا أنه بعد عشرة سنوات أو عشرين سنة من اليأس ، انحلت عقدة الأمر من تلقاء نفسها ، ثم أنه لو كان من المفروض أن يكون لكل أهل هذا الزمان نسل ، لأصبح الإنسان مثل نبات حمص الأمير ، ما إن تلمسه حتى يلقي بقبضة من البذور . لكل أمر حكمة ، وفي رأيي أنه من الأفضل أن يسلم ميرزا عبد الزكي بقضاء الله ، ولو أطاعني ...

وفجأة ارتفعت نهنهات بكاء ميرزا عبد الزكي ، وكان قد وضع رأسه بين ركبتيه ، وهو ينشج بالبكاء ، بحيث كان كتفاه يهتزان ، وتبادل ميرزا أسد الله والحكيمباشي النظرات ، وأسرع ميرزا أسد الله خارجا يأتي بالجلاب ، وقال الحكيمباشي بلهجة فيها لوم :

– عيب يا جناب السيد . أشكر الله أنك سليم البدن . وأنا قد قلت من أين نعلم أن زوجتك لن تحمل في الغد ، ثم إنه إذا كان قلبك تواقا هكذا إلى الأطفال ، فامض ، والتقط واحدا من هؤلاء الأطفال المشردين وربه .

هذا إذ دخل ميرزا أسد الله برشاشـــة ماء ورد ، ورش رأس رفيقـــه ووجهه ، ودفعه إلى تجرع نصف كوب العصير ، ودلك كتفيه قليـــلا ، حتى أفاقه . وبمجرد أن مسح ميرزا عبد الزكي عينيه ، تربع جالســـا ، وبدأ في قص ما كان قد قصــــه لرفيقه بالأمس بداية من نشوز زوجته ، حتى فخرها الأجوف بحمايـــة خانلرخان ، والمهلة التي كانت قد منحته إياها حتى آخر الأسبـــوع ، وأنها تريد عن طريق حكيمباشي البلاط أن تعد شاهدا على طلاقها . حك الحكيمباشي جبهته بعد أن استمع إلى هذا الكلام وقال :

– من الواضح أن زوجتك " مسنـــودة " تماما ، أرسلها إلى زوجة ميرزا أسد الله تنصحها قليلا ، أما عنك أنت نفسك فمن رأيي أن تنهض وتقوم برحلة ، سح في الدنيـــا قليلا ، يقل همك وانشغالك . والله رحيم ، وقبل أن تصـــل عقول عباده إلى شيء ، ربما يجود هو نفسه برحمته عليـــهم .

وعندمـا وصـــل الكلام إلى هذا الموضـــع ، ومن أجل أن يحـول ميرزا أسد الله دفة الحديث ، بدأ في قص ما جرى حتى ذلك الوقت بينه وبين رفيقـــه ، وقصة وفاة الحاج ممرضـــا ، ونزاع أولاده على الميراث ، وتدخل ميزان الشريعـــة ، ووقف ثلث التركة ، والرحلة التي تقرر أن يذهبا معا فيها . وبسماع هذه القصـــة استغرق الحكيمباشي في التفكير ، ومسح على لحيته البيضاء عدة مرات بيده ، وفي النهايـــة التفت إلى كاتبينا وقال :

– هكذا يتضح أنكما قد طبختما الأمـــور جيدا ، إذن فالأمر

هكذا !! يريدون وقف ثلث تركة أبيهم ! حسنا قولا لي ، ولأر : هل تعرفان أى شيء عن سبب وفاة الحاج ممرضا ؟

ونظر كل من كاتبينا إلى رفيقه ، وفي النهاية تحدث ميرزا عبد الزكي قائلا :

– أى علم لنا يا عزيزى ؟ كل ما سمعناه أن الحاج قد مات ، وأن النزاع احتدم بين أولاده على تقسيم التركة ، فمن أين نعلم كيف مات ؟ لابد أنه مات بالأجل الإلهي .

قال الحكيمباشي : ألم تفكرا قط في أن تذهبا وتسألا أولاده ؟. وأجاب ميرزا أسد الله هذه المرة :

– لقد ذهبت إلى سرادق العزاء ، لكن أولاده كانوا في درجة من الضيق لا يمكن معها سؤالهم عن شيء ، وفي هذا النوع من المجالس ، لاتوجد فرصة مثل هذه الاستفسارات .

قال الحكيمباشي : صدقت ، فهو على كل حال كان قد شاخ ، وكان من المتوقع أن " يطب " عليه زميلنا عزرائيل في هذه الأيام ، لكن لب الموضوع أن الشيخ التعس قد مات بالأجل المعلق .[1] لا بالأجل المطلق . لقد دسوا له شيئا في الطعام . وأنا أعرف أى سم دُس له ، تعلمون أنهم استدعوني إليه ، في نفس وكالته في السوق ، كان وجهه ولونه يصرخان أنه قد مات مسموما ، وكانت شفتاه متشققتين وكأنه ضرب بنصل .

---

(١) الأجل المعلق هو الموت بسبب كالحوادث والسم ومإإليه . المترجمة

قاطع ميرزا عبد الزكي كلام الحكيمباشي وقـــال :

– نعم ، هكذا يا عزيزى ، الجميع يقولون أن أولاده دســوا له شيئــا في طعامــه .

قال الحكيمباشي : لا ، أيها الشاب ، لا تضع على كاهلك ذنوب الناس بغير داع ، إذا كان أولاده قد دسوا له شيئا في الطعام ، لما شجر بينهم النزاع على تقسيم التركــة ، ثم إن منزل المرء هو أنسب الأماكن من أجل مثل هذه الأفعال . لقد سمم الحاج التعس بشواء السوق . يا لها من أيــام عجيبــة ، إذن فقد قاموا بهذه الضجــة لإخفاء الأثر ، ولكي يخادعوا حتى اللــه . ومع كل هذا ، قومــا برحلتكمــا ، لكن اعلمــا أن أولاده أبرياء ، أبلغــاهم ســلامي إذا رأيتماهمــا . والآن يكفي هذا إذ يجب على أن أذهب .. مرضاى في انتظــارى .

يا أعزاء القلب ، هكذا انتهت جلســة الحكيمباشي مع كاتبينــا ، ونهضوا معا وخرجوا . كان الوقت لا يزال في بداية الصبــاح ، وكانت الدكاكين أدنى الممر تفتح أبوابها ، والشحاذون قد انتشروا في الطرقات لتوهم ، وباعة الخضــر يعودون من الميدان[1] ، وذهب الحكيمباشي إلى عيادته ، وافترق كاتبانا في مفترق طريق السوق وسويقــة العلافين ، وذهب ميرزا عبد الزكي إلى مكتبه ومشاغله ،

(٢) المقصود سبزة ميدان سوق الجملة فى المدينة " التى لم يحدد الكاتب إسمها " والواضح أنها طهران (المترجمة)

بينما عرج ميرزا أسد الله نحو سويقة العلافين ، ثم صوب منزل الحاج ممرضــــا ليتشمم الأخبـــــار .

وعندما مر من ناصيـــــة الحـارة ، رأى حارسين جالسين على النجدين اللذين على طرفي الباب وهما يلعبان القمار بالعظام ، قال ميرزا لنفســـــه : إذن الموضوع ليس بهذه البساطة ، وكان خان دايي صادقا فيما رواه . والآن ماذا أفعــــل ؟ الحارة ســـد وخالية . فلا سبيل إلى العودة أو الدق على باب آخر . وطرأت فكرة له على الفور ، فتقدم مباشرة إلى الحارسين اللذين كانا قد كفا عن اللعب ، وأخذا يتفحصانه ، وأمسك ميرزا برمانة باب الحاج وأخذ يدق ، وتحدث أحد الحارسين قائلا :

– ما الخبر ؟ لديك عمل مع من ؟

قال ميرزا :– أليس هذا هو بيت الحاج ممرضـــــا ؟

ابتسم الحارس الثاني ابتسامة صفـــــراء وقال :

– يا نبيه ، أنظر إلى هذا .. الحاج انفجر منذ ثمانية أيام ، أخرج مقلمتك من طيات شالك ، واكتب له عريضة إلى الآخـــــرة . وقهقه . اتخذ ميرزا أسد الله مظهر من أسقط في يده وقال :

– عجيب ، الله يرحمه . إذن فما مصير ديون وقود الناس ، ورثته أحيـــــاء ، أليس كذلك ؟

عاد نفس الحارس الثاني إلى الكلام مرة أخرى:

– لا ، عليك الآن أن تذهب وتمسك بخناقه على جسر الصراط ،

فكتابة العرائض لن تفيد بعد . وضحك .

لم يضحك الحارس الأول من مزحـــة رفيقه ، وقال :

– يا أخينا الأكبر ، دعك من التلكؤ ، لا يوجد أحد داخل البيت ، والحكومة قد شمعت الباب والنوافذ بالشمع الأحمـــــر .سأل ميرزا متعجبـــا :

– أتراه كان مدينا للحكومة إلى حد أنهم صادروا كل أموالــــه ؟! مصيبة أن يكون قد أفلس !!

قال الحارس الثاني : لا نعلم شيئـــا عن هذه الأمـــور ، لا تسألنا يا أخينـــا سؤال الملكين [(١)] اتخذ طريقك ، وامض ، فبمجرد أن انتهت مراسم العزاء في الحاج ، رحل أهل بيته وأولاده عن هذا البيت ، وسلموه لنا .

قال ميرزا بحزن :– الخلاصـــة ما مصير ديني ؟ وفي النهاية : إلى أية داهية ذهب أولاده ؟

ابتسم الحارس الثاني ابتسامة صفراء مرة أخرى وقال :– ألم أقل لك أن تذهب وتمسك بخناقه على جسر الصراط ؟ الخطأ خطؤك أنك لم تسمع الكلام ، الإنسان المتعلم مثلك لا يعطي نقودا بلا ضمـــان لرجل إمعـــة مثل الحاج ...

– حسنــــا ، لا تغتب الموتى .

---

(١) حرفيا : لا تسألنا عن أصول الدين وهو تعبير في الفارسيه عن الإلحاف في السؤال . المترجمة

قالها الحارس الأول لرفيقــــه ، ثم استدار إلى ميرزا وأضاف قائلا :

– لا تكن لجوجـا أيهـا الأخ ، فنحن لا نعلم أى شيء ، لا بد أن أولاده الآن يتشاجرون على تقسيـــم الميراث ، وأنت أيضـــا إذا أردت فاصبر ، فمن الجائز أن يتضح الأمركله بعد أسبوع أو أسبوعين ، وإن لم تكن تريد أن تصبـر ، فـاكـتب عـريضـــة ، واذهب بنفسك إلى الشرطـــة ، واشكُ . وثانية... شرفت ، مع الســـلامة .

وهنا ، هز ميرزا رأســـه مودعا الحارسين اللذين انشغلا بلعبهما ثانية ، واستدار وأخذ يمشي وهو يهز رأسه كمن أسقط في أيديهـــم ويحدث نفســـه " لا ، لم يحدث ، ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى مجلس العزاء ، لم يكن هناك أصـــلا خبر عن هذا الكلام . بعد أسبوع أو أسبوعين ، ستتضح كل الأمور ؟ بأى شكل ؟ يعني من الذى دس لـــه السم ؟ وبمجـرد أن عـرج من ناصيـــة الحـارة ، تذكـر مـشـهـدى رمضـــان العلاف الذى كان له حانوت قريب ، واتجه نحو حانوتـــه .

كـان مـشـهـدى قـد فـرغ لتـوه من تنظيف حـانوته ، وكـان جـالسـا القـرفـصـــاء مـتـعـرضـا لشـمس الخـريف الدافـئـة وهو مـسـتـغـرق في التـفكيـــر . وتبـادلا التـحـيات والسـؤال عن الأحـوال ، وجلس مـيـرزا القرفصاء أيضـا بجوار مشهدى واستندْ على الحائط وقال :

– حسنا يا مشهدى ، ما هو السـعر المنتظر للفحم هذا العام ؟ وإن كـان في الوقت الراهن أين نحن من الشـتـاء ، لكن قبل أن يسـقط الثلج ويسد الطرق ، ينبغي أن نفكر فى فحم الأولاد .

قال مشهدى رمضـــان: – عندما جئت في العام قبل الماضي أول برج القوس ، لم نحاسبك على سعر عال يا ميرزا .. رحم الله والدك فله حق في رقابنـــا . في أى وقت تحب وإن لم يكن معك ثمنه ، لا مانع ، أكتب فقط كلمتين : مقدار كذا حطب ومقدار كذا فحم ولا عليك بعد ذلك ، سوف أستأجر أنا مكاريا وأرسلــه إليك ، فحم نظيف مثل الشبة ، وحطب أعواد من الغابة كأنه الخشب الأبيض ، ينبغي فقط أن توصي أهل بيتك ليعدوا مكانه حتى لا يتعطل الحمال والمكارى .

قال ميرزا :– أطال الله عمرك يا مشهدى ، ولداى الوحيدان يسلمان ببركتك من برد الشتـــاء ، ولست بالجاحد أفضالك [1] . لكن لأر حقيقة : لماذا وضعوا الحرس على باب دار المرحوم الحاج ممرضـــا ؟ هل حدث – معاذ الله – شيء ؟

تأوه مشهدى وقال :– أى علم لي ؟ وفي من يثق المرء بعد ذلك ؟ لقد أشاعوا أن أولاده قد دسوا له السم ، لكنى أشهد الله أنهم لم يكونوا من الذين يرضون بقتل نملة.. وهل كان هو أبا سيئا ؟ لم يكن يبخل على أولاده بشيء .

قال ميرزا :– كان الحراس يقولون إنه لا يوجد أحد في البيت ، فماذا حدث لزوجه وأولاده؟ وأية بلايا صبت على رؤوسهم ؟

قال مشهدى : من المؤكد أن أولاده التعســـاء قد ذهبوا إلى القرية . ويقال أيضـــا أن ميزان الشريعة كان ضالعا في الأمر . ويقال أن المرحوم كانت له علاقة وثيقـــة مع هؤلاء الدراويش ، كما يقال إن

---

(١) حرفيا : لست بالقط الأعمى .(المترجمة)

العلاقة قد ساء ت بين الحكومة وبين هؤلاء الدراويش . وأشيـــاء كثيرة تقــــال . لكنى لا أفهم شيئــــا ، ثم وعلى الفور ، إذا كان كل هذا صحيحــــا ، لماذا في النهاية ختموا بيته بالشمع ؟ لا يوجد هناك من ينبس ، يا لها من مدينة في فوضى عجيبة !! في مثل هذه المدينة ، لو كنت مكان الدراويش لادعيت الألوهية ، ومكان إمام الزمان المنتظـــــر محفوظ .

كان ميرزا أسد الله على سابق علم بالدراويش ، وعندما كان طفلا ، كان أبوه قد عرفه بموضوعهم ، كما كان هو أيضــــا قد ذهب – مثل كل أهل المدينة – إلى زواياهم ، واستمع إلى حكاياتهم و خطبهم و برغم أنه لم يكن يؤمن بأعمالهم وأقوالهم ، لكنه لم يكن يشعر نحوهم بعداوة شديدة ، وكان يؤمن بأن ما لديهم مجرد حانوت ، مثل حانوته تماما أو حانوت مشهدى رمضـــــان العلاف أو حانوت ميزان الشريعــــة أو حانوت رفيقه ميرزا عبد الزكي كاتب الأدعيـــــة ، لكن موضع العجب أن تنضم إليهم شخصيــــة مثل الحاج ممرضــــا ، مع كل ماله وحيثيته ..وتذكر فجأة أن الحاج رحمه الله كان يقوم أيضــــا بتربية الغنم ، وكان يجلب الغنم والأبقـــــار ، ويشترى منه ستون أو سبعون قصابا الذبائح ، فكان أن سأل مشهدى رمضــــان :

– ألا تعلم أن الحاج كان يعقد صفقات الجلود والسقط مع هؤلاء الدراويش ؟

قال مشهدى رمضــــان : الله أعلم .كان يقال إنه في الأيام الأخيرة قد افتتحت مدبغــــة في إحدى تكايا الدراويش . وكان يقال أنه

كان أيضــــا شريكهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا ثبت أن علاقة الحكومة معهم قد ساء ت ، أظن أن رجال الحكومة هم الذين دسوا السم للحاج رحمة اللـــه عليـــه ، حقيقة ما رأى خان دايي ؟

قال ميرزا : أنا قادم الآن من عند خان دايي ، كان يقول أن أولاده أبريـــاء . حسنــا لم تقل لي في النهايــة ، كم يبلغ سعـــر الفحم ؟

قال مشهدى : وما شأنك بالسعـــر ؟ إن كان لديك نقود أتركها وامض ، ولا شأن لك بما يتبقى عليك ..

قال ميرزا : لا خبر هناك عن النقود حتى الآن ، لكن من يدرى شيئا عن الغد ؟ أرسل لي بالفعل أربعة أحمال حطب جاهز مع ثلاثة أحمال من الفحم الجاهز أيضــا ، وأرسل الفاتورة مع الحمالين ، وإن كنت موجودا سأنقدهم ثمنها ، وإلا أرسل إلى خان دايي ، فالرجل الشيخ يتحمل مغارمنا دائمــا .

قال مشهدى رمضـــان : هل تفكر في السفر يا ميرزا ؟ خيرا إن شاء الله .

قال ميرزا : - ربما أمر مرورا عابرا على أملاك الحاج رحمة الله عليه ، وأرى أولاده أيضـــا ، ربما يتأتى شيء من أيدينا ، فأنا قلق جدا عليهم ، أنت تعلم أنني رفيق طفولة إبنه الأكبـــر .

وهنا ودع ميرزا مشهـــدى رمضـــان ، وعاد صوب عيادة ميرزا خان دايي ، لكي يخبره بما رأى وسمع . ولم يكن هونفســـه من مجموع ما رأى وما سمـــع يشم ريحا طيبة ، وكان يريد أن يعلم ما هو

رأى خـان دايي . فكان أن مـر في البـدايـــة على باب المسـجـــد الجامع وأخبر الجيران بأن لديه اليوم مشاغل وأنه لن يستطيع العمل . ثم ذهب مـبـاشـــرة إلى الحكيمـباشـي ، وكان لا يزال عنده عدد من المرضى ، انتظر نصف ساعة حتى أخذ آخر مرضاه وصفته ومضى . وبقي هو وخان دايي وحدهمــــا . وقص على الحكيمباشي ما كان قد رآه وسمعه ، كما أسر إليه بوجهة نظـــره ، وطلب من الحكيمباشي رأيه ، فمسح الحكيمباشي على لحيته البيضـــاء وقال :

- مــعك الحق يا بني العــزيز ، في هذه الأيـــام هناك أناس آخرون غير ممرضـــا مـاتوا بنفس الطريقــة ، ثمة رائحة توحي بأن أحداثا سيئـــة قادمة ، ومن الأفضـــل لك ألا تكون في المدينــة لمدة أسبوع أو أسبوعين ، فسوابقك مع رئيس الشرطـــة وميزان الشريعة من الممكن أن تجـعلهـمـا يدبران لك مكيـدة [١] مع أني لست مستريحـــا إلى هذا الشاب رفيقك ، وكما يبدو أيضـــا هناك أمر إذعان في موضوع المصالحة ووقف أموال الحاج . لكن على كل حال هيئ أمورك ، وانهض فامض مع هذا الميرزا ، ولتكن أيضا مطمئن البال من ناحيـــة أسرتك.

---

(١) حرفيا : يخيطان لك خفا (المترجمة) .

(٥)

المجلس الرابـــــع

يا أعــزاء القلب ، شـــاء ت إرادة اللــــــه ، أنه في نفس المدينة والولايــــة التي كان كاتبانا يعيشـــــان فيها ، كان قد ظهر منذ ثلاثين أو أربعين عاما مضت طائفة من الدراويش لها معتقدات خاصــة بها ، كانوا قد جاء وا بكلام جديد ومقولات جديدة ، وقليلا قليلا شكلوا طائفة وفتحوا حانوتا ، وآخر الأمر أى في الزمن الذى كانت تجرى فيه حكايتنا ، كانوا قد بدلوا تكاياهم إلى أماكن اعتصــــــام لا يدخلها أحد بدون إذنهم ، وكان لغط الناس قد بدأ ، وأخذوا يتحدثـــون عنهم بكلام كثيـــــر ، وهو وإن كان صحيحـــا ، إلا أن الولوج فيه يعد من قبيل التزيد بالنسبــــة لرواة الأخبار ، لكن لما كانت قصــــة كاتبينــا قد ارتبطت شئنا أو أبينا بأعمال الدراويش والأوضاع العامة في ذلك الزمان ، والآن وإلى أن يبدأ كاتبانا السفر ، لنمض لنر في يد من كانت مقاليد الأمور في تلك الأيــــام ، ومن كان الدراويش ، ولماذا ســـاءت العلاقة بينهم وبين الحكومــــة .

يا أحبــــاء القلب ، كانت رسوم هؤلاء الدراويش ومعتقداتهم على النحو التالي : كانوا يعتبرون النقطـــة هي مركز عالم الخليقة ، كما كانوا قد حطوا التكاليف الشرعيـــة عن كواهل الناس ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بالرمز والكناية ، ويعتقدون أن الحروف الأبجدية حلا للعقد أكثر من أى طلســــم ، وبدلا من بسم الله كانوا يقولون

"أستعين بنفسي " وبدلا من " لا إلـــه إلا الله " كانوا يقولون " لا إلـــه إلا المركب المبين " ، وكـانوا يظنون أنهم قـد توصلوا إلى الإســـم الأعظـــم ، وكانت كتبهم ودفاترهم المذهبيـــة مليئة بالنقط والحروف المفردة مثل : ف .. ص.. د.. وعلى هذا النحو ، وكان شعارهم الطبرزين ، فإما أن يملك كل منهم واحدا منه ، ومن لم يكن لديهم كانوا يشمونه على ظهور أكف أيديهم ، وبالرغم من أن هذه المعتقدات قد تفوح منها رائحة الكفـــر ، إلا أن خلاصـــة معتقداتهم أنه بدلا من عبادة الله الموجود في السموات والغنى عن صلاة البشر التافهين وصيامهم ، وكل دعاء البشر المخلوقين من تراب وثنائهم عليه في حكم جناح ذبابة بالنسبة لعظمتـــه ، فمن الأفضل أن نعبد الإنســـان المخلوق من تراب والذى يمثل أمامنا على قدمين ، ربما نقترب منه بهذه الطريقـــة أكثـــر ، ونوفي احتياجاته أكثر قليلا ، وعلى هذا النمط من الحديث الذى وإن لم يؤد إلى الكفر في النهايـــة ، إلا أنه صار تكئـــة للتفكير وباعثا على إراقـــة دماء كثيرة . ومن قضـــاء الله أن هذا هو مـا حدث بعينه في هذه المدينـــة والولايـــة بمعنى أن الملات والمشايخ كانوا قد كفروا الدراويش ، وأخرجوهم من المساجد ، كما أن رجال الحكومة قد أرهفوا أسماعهم ، ولما كانوا يرون الناس منشغلين بهم ، لم يأبهوا بهذه الإدعاءات .

ومن جهـــة أخرى ، ففي زمن حكايتنا ، كانت تلك الحرب الطويلة التى احتدمت بين الشيعـــة والسنة في الدولة المجاورة ، ومذابح السنة التى ارتكبت داخل البلاد قد بلغتا بالناس المنتهى ، ومع أن الحرب

كانت قد انتهت ، ولم يكن هناك خبر بالفعل عن القتل المستمر ، إلا أن آثار الخراب والدمــــار كانت لا تزال قـائمـــة ، وكـان يلزم وقت طويل حتى تعود الحياة إلى مجاريها الطبيعية ، وفي أى قرية قط لم يكن يوجد بغل قوى حتى ك " نموذج " ، وكانت حوانيت بيــــع الأسلحـــة لا تزال رائجـــة داخل المدن ، وبقدر ما تهوى كان أعداد المشلولين والمعوقين ومن سملت عيونهم قابعين في الحارات على خرقة التســـول ، وكل أربعة أو خمسة سنوات كان القحط يهجم ، أو الوباء يقع بين الناس ، أو طاعون البقر في القرى ، وهذا النوع من البـلايـــا ، وكان في مثل ذلك الزمــــان أن ازدهرت أمور الدراويش .

وكان مبدأ أمر الدراويش أن بدأوا واحدا واحدا ثم جماعة جماعة في الإقلاع عن التجوال في الصحارى والمجيء إلى المدن ، وذلك لأنه لم يكن ليوجد شيء في القرى ، والقرويون أنفسهم قد عجزوا عن مزاولة حياتهم ، وعلى هذا النحو عندما أخذ عدد الدراويش يزداد في المدن ، من أجل أن يدبروا أقواتهم ، بدأوا في رواية السير ومدح الأئمـــة ، وقليلا قليلا كان الجمهور يتزايد حول حلقاتهم ، فأخذوا يزدادون جرأة ويدقون على الأوتار الحساســة [1] عند الناس ، وهكذا جمعوا الناس حولهم قليلا قليلا وواصلوا وواصلوا حتى رسخوا ، وألقوا عصيهــــم في التكايــــا واستقـــروا .

يا أعزاء القلب ، كان الموضوع الذى جعل سوق الدراويش يروج أن رئيسهم " ميرزا كوتشك جفردان" ، منذ ثلاثين أو أربعين سنة مضت

(١) حرفيا : يعرجون على صحراء كربلاء (المترجمة)

قبل زمن أحداث قصتنا – أي تماما في نفس الوقت الذى كان فيه كاتبانا يذهبان إلى الكتاب– كان قد ألقى بنفسه في دن زئبق وهلك ، وكان مريدوه قد أشاعوا أنه غاب وسرعان ما يعود ويملأ الدنيا بالعدل والإنصاف . وكان كل واحد من الدراويش يشير حتما إلى هذا الموضوع في كل مجلس يرويه . وصدق الكثيرون هذا الأمر ، وانتظروا ليل نهار .

علاوة على هذا ، كانت للدراويش سوق رائجة أخرى في المدينة ، فقد أشاعوا في المدينة أنه إن بدأت الحرب ثانية ، على كل من يرد اسمه قي قوائم المطلوبين للتجنيد ولا يريد أن يذهب إلى الحرب ، أن يأتي ويعتصم في إحدى التكايا ، حتى يذهب الدراويش ويدفعون له " البدلية " ويشترون روحه من الحكومة ، وكانوا قد رشوا ستين أو سبعين من كبار السن في المدينة ، بحيث كانوا يشهدون في كل مجلس يحضرونه ويقسمون بالقرآن أن ميرزا " كوتشك جفردان " قد دفع قبل غيبته هذه " بدليتهم" واشترى أرواحهم ، وإلا علم الله في أى ميدان حرب كانت تثوى عظامهم الآن تقلبها فأش قروى . ومن هذا القبيل كانوا قد ملأوا آذان سكان المدينة قليلا قليلا ، كما جمعوا المتسولين والجياع من كل حي داخل تكاياهم ، وثم رائح وغاد وهيلمان وأبهة !! .

وشاءت إرادة الله أن يكون زعيم هذه الطائفة في زمن قصتنا رجلا يدعى تراب تركش دوز " ناسج الكنانات " ، كان من أصحاب تلك الرؤوس التي لا تخاف . كان رجلا في الخمسين من العمر

ذا لحيـــة شمطـــاء يرتدى قباءً أبيض طويلا ، كما كان رجلا ضخما .. درويشـــا محترما . وكان سبب شهرته أنه في مدة أربعين يوم كان قد جـــاء برأس " اشبختـــر" من ميدان القتـــال ، وكان قائدا لجيش الأعداء . وكان هذا الأمر قد حدث منذ عشرة سنوات ، حينما كانت الحروب بين الشيعة والسنة في بدايتها [1] ، في ذلك الوقت كان تراب تركش دوز قد وفد حديثـــا إلى المدينة ، وقبع في التكيـــة ، وبوساطة الصدر الأعظم اختلى خلوة أربعينيـــة صوفيـــة ، يأكل في اليوم لوزة واحدة ، وكل يوم كان يرسم صورة " اشبختر " كاملـــة على جدار التكيـــة ، ويقطع رقبتـــه بخط أحمر ، وفي اليوم الحادى والأربعين وصل رسول البريد الملكي الخاص متعبا مغبرا ، وألقى برأس صاحبنا متيبســـة داميـــة أمام عرش " قبلـــة العالم " . وكان هذا سببا في أن يجتاح الرعب من الدراويش الناس ، وكفوا عن إلحاق أدنى أذى بهم ، وأخذوا يتجمعون حولهم يوما بعد يوم ويرسلـــون إليهم النذور والصدقـــات . حقيقة أنه بداية من هذا استولى الخوف على قبلـــة العالم ، ونفى الصدر الأعظم خارج البلاد ، لكنه لم يكن يتعرض للدراويش أدنى تعرض ، لكن إسم تراب تركش دوز كان قد جرى على الألسنة ولم يعد حتى الفيل يستطيع أن يقف أمام الدراويش .كان تراب تركش دوز قد أمر بأن يلقى درس ديني كل ليلة جمعة في سبع تكايا في المدينة كانت مراكز تجمع الدراويش ، ومن بعده كان الطعام يقدم ، ومن

(١) اشبختر هو النطق العامى الفارسى لاسم قائد الجيوش الروسية فى الحرب الروسية الإيرانية التى حدثت فى أوائل القرن التاسع عشر ، وقد استغل الكاتب الإسم هنا والزمن غير الزمن والحرب غير الحرب (المترجمة)

ثم كانوا يـجمعون في كل ليلة جمعة عددا جديدا حولهـــم ، وعلاوة على الدراويش أنفسهم ، فإن شحاذى المدينة ، وكل فار من الحكومة ، وكل مجرم ، وكل من وقع عليه ظلم ولا يستطيع أن يأخذ حقـــه ، أو كل من تشاجر مع جدته، أو ضاق ذرعا بزوجات المتعة اللائي تحته والزوجات الدائمات ، أو ضاق من ملاحقة دائنيـــه ، كلهم جاء وا واعتصموا داخل التكايا وكل منهم جاء بفراشـــه وغطائه . ولما ازداد جـمـهـور الدراويش بشكل سيء ، ومن الممكن للبطالة أن تقضي على صبرهم ، قام تراب تركش دوز منذ عامين بجعل كل تكية مركزا لحرفـــة من الحرف ، وجر الدراويش جميعا إلى العمل ، فثمة تكية للسراجين ، وتكية لخراطي السلاح الأبيض ، وأخرى للخبازين ، ورابعة للسروجية .. إلى آخره ، وبالرغم من أنه هو نفسه كان في شبابه وقبل أن يكون خليفة لميرزا كوتشك جفردان كان يقوم بحياكة الكتانات – كما يدل إسمه – إلا أنه الآن انخرط في سلك خراطي الأسلحة البيضاء ، وكان قد قسم العمل داخل كل تكية ، أما اولئك الذين لم يكونوا يتقنون حرفة ما ، فكانت جماعة منهم تقوم بالطبخ وتشرف على احتفالات الدراويش ، وجماعة أخرى تقوم بالكنس والرش وأمور التنظيف ، وجماعة تقوم بأعمال السوق وتشرف على الصفقات التي تعقد مع التجار موضع الثقة من الدراويش و يشترون البضائع التي يصنعها الدراويش ، أما اولئك الذين كانوا أهل صنعة وحرفة ، فكان كل منهم مشغولا بصنعته وحرفته داخل إحدى التكايـــا ، وكانوا يرسلون كل ما يقومون بصنعه إلى السوق ، ولما كانوا يبيعون بأسعـــار أرخص من الأسعار السائدة ،

فقد كان لديهم دائمـــا زبائن يشترون . وكانت النسوة ممنوعات تماما من دخـول التكايا، لأن مـعـاشـرة النسـاء كـانت مـحـرمـة فـى شـريعـة الدروايش ، وكان الدروايش كلهم عزابا ، ثم ووزر مانقوله فى رقاب رواة الأخبار – الذين يقولون أن كثيرا من الدراويش كانوا مدمنين للحشيش والأفيون ، أما عن اللواط فقد كان بدوره سائدا فى هذه الولاية .

ياأحباء القلب هذه الأمور استمرت واستمرت حتى نفس تلك الأيام التى تبدأ فـيـهـا قصتنا ، وفـى يوم من الأيام أخبر أحد عيـون الحكومـة السريين " خواجة نور الدين " صاحب الديوان الذى كان رئيسا للوزراء فى ذلك الوقت وخلفا للصدر الأعظم السابق الذى نفى ، أن تراب تركش دوز منـهـمـك فى صب المدافع ، واحـتـاج الرعب كل رجـال الدولة دفـعـة واحـدة ، ذلك أن الأسلحـة النارية كـانت حـديثـة الإسـتـخـدام فى البـلاد الغربية ، ولم يكن قد وصل بعد إلى هذه الأنحاء ، كما أن الدولة كانت تهزم فـى حـروب الشـيـعـة والسنة مع الدولة المجـاورة لأنهـا لم تكن قد استطاعت إلى ذلك الوقت أن تصنع المدافع ، بل كـان واحـد من كل عشرة من جنودها ليس أكثر يحمل بندقية .

على كل حـال ، إلى هذا الحد لم يكن هناك فيما يفـعل الدراويش عيب يذكر وكان الناس متـحـمسين وقد ظنوا أن أمـرا ما يمكن أن يتـأتى من يد أولئك الدراويش ، وكـانت الحكومـة حـينمـا تريد ، كـانت تسـتطيع بسهولة أن تهلك أحدهم ، فتعطى السم لمن يدسـه فى طعامه ، أو تستصدر حكما بتفكيره من ديوان الشرع ، أو تضـع الشمع المشتعل فى جراح فى جسده ، أو تسمل عينيه . لكن الآن ثمة روائح كريهة تفوح . وكان أن عم

القلق [1] العظماء والأعيان والوزراء ، ومن ثم لم يقم واحد أو إثنان بالتقصي ، بل أرسلوا الجواسيس وكتبة التقارير والعيون الواحد تلو الآخر متخفين في ثياب الدراويش ، وذهبوا إلى تكاياهم وأماكن تجمعهم ، ومن أجل ألا يبقى مجال للشك ، طلب خواجه نور الدين من خانلرخان أن يذهب هو نفسه وقد بدل ملابسه ويتشمم الأخبار وقام خانلرخان الذى كان يشتهى منصب ملك الشعراء بشكل سئ بالمهمة ، وأخبره أن الأمر صحيح ، وأن تراب تركش دوز يشترى الأهوان النحاسية من المنازل المجاورة بسعر باهظ جدا ، وأنه أقام داخل تكية خراطى السلاح الأبيض الأكوار والأدوات اللازمة، وأنهم صنعوا حتى الآن ثلاثة مدافع تماما مثل مدافع أهل السنة .

وما إن بلغ الأمر هذا الحد ، فهم خواجه نور الدين صاحب الديوان أية طموحات تدور في رأس تراب تركش دوز ، إذ يمكن بهذه المدافع الثلاثة أن يحدث فجوة في اتساع بوابة في صدر جدار القلعة الحكومية خلال يوم واحد ، فكان أن أخبر الوزراء ، وبعد يومين أو ثلاثة من التشاور ، تقرر أن يبلغوا " قبلة العالم " بالخبر ، ولهذا استدعوا خانلرخان لينظم قصيدة يشير فيها إلى هذه الأمور ، فإذا أرهف قبلة العالم السمع ، وطلب أن يفهم معنى هذه الإشارات ، يتقدم عندئذ خواجه نور الدين ، ويعرض على جلالته أصل الموضوع . ونفذوا ما اتفقوا عليه ، لكن قبلة العالم لم ينتبه قط إلى إشارات خانلرخان ، وظن أن غرضه هو مجرد الحصول على رتبة ملك الشعراء ، ومن نفاد

---

(١) حرفيا : وقعت البراغيث فى سراويل (المترجمة)

صبره ، أمر بأن يصلوه بخمسين سكة ذهبية ، وصرف الجميع . ولم يكن لدى واحد من الوزراء الجرأة ، أن يذهب إلى " الحرملك" ويبلغ السلطان الخبر . ووقعوا في حيص بيص ، وأخذوا يتبادلون الرأى ثانيـــة لمدة يومين أو ثلاثة . وفي النهايـــة تفتقت عقولهم أن يتوسلوا بمحظية الملك عن طريق رئيس أغوات الحريم ، وفعلوا ، لكن محظيـــة قبلة العالم رفضت أن تفسد ليلتها التي تأتي بعد انتظار ثلاث وثلاثين ليلة وتبلغ الخبر إلى الملك في أول الليل وتهدر متعتها وسرورها، وقررت فيما بينها وبين نفسهـــا أن تبلغه الخبر في الصبـــاح ، لكن قبلة العالم كان نائما في الصباح ويحتاج الأمر إلى قلب أسد ليذهب أحد في الصبـــاح ويوقظه ، ومضى شهر على هذا الحال ، ولم يتجرأ أحد من الوزراء على أن ينبس بحرف أمام قبلة العالم ، وما كان هناك من شخص يتطوع لإنجاز هذا العمل ، فحتى الوزراء أنفسهم لا يجرؤ أحدهم على شربة ماء دون أمر من قبلة العالم ، ولم يكن هناك أى أمر يتأتى من أيديهم ، وفي هذه الفترة ، استطاع تراب تركش دوز أن يصب ثلاثة مدافع أخرى .

من ناحيـــة أخرى ، عندما رأى خواجه نور الدين أن السكوت لا يفيد ، تهور ، وصمم على وضع خطة بمفرده وترتيب الأمر ، وكان أن ارسل في استدعاء خانلرخان مقرب الديوان الذى تعرفنا عليـــه من قبل ، ورئيس منجمي البلاط الذى كان قد حل حديثا محل أبيه ، ولم تكن الفرصـــة قد أتيحت له بعد لتقديم الخدمات واستعراض الذات ، وأفهمهما إلى أى حد وصلت الأمور ، وفسر لهما أنه طبقا لما تخبر به

التقارير الحكومية القادمة من الأقاليم فإن هذه الأحوال قد اتخذت طريقها بشكل أو بآخر إلى المدن الأخرى ، وإن تأخروا في الحركة ، سوف يتعلمون في تلك الأماكن صب المدافع ، وتفلت الأمور تماما ، وآنذاك لا قبلة العالم سوف يبقى ولا ملك الشعراء ولا رئيس منجمي البلاط ، وبعد أن شرح لهما خطته أخذ وعدا من رئيس منجمي البلاط أنه سوف يقيم في المرصد لمدة ثلاثة أيام ؛ يرصد ، ويضع خطة للأمر ، وأن يقوم خانلرخان بنظم قصيدته بحيث لا تكون الإشارات والكنايات فيها بعيدة عن الفهم لكي ينتبه قبلة العالم . وبعد أن انتهت الجلسة أرسل إلى حكيمباشي البلاط ووضع أمامه قائمة بأسماء سبعة أشخاص ينبغي أن ينتهي منهم في خلال أسبوع وكان هؤلاء السبعة من التجار الذين كانوا يتعاملون مع الدراويش ويدعمونهم ماليا ، وكان من بينهم الحاج ممرضا الذى تقرر أن يسافر كاتبانا لحصر أملاكه . وأقول لكم أيضا أنه أمر أيضا ميزان الشريعة كم يصادر من أموالهم ، وكم يدخل في الأوقاف ، كما أفهم رئيس شرطة المدينة أن يأخذ عددا من بغال الناس وخيولهم للسخرة ، والخلاصة أنه قام وحده بترتيب الأمور كلها . وفيما يتصل بالطرف المقابل أمر كل بصاصي الحكومة وجواسيسها أن يذهبوا ويشيعوا داخل التكايا بأن معجزة على وشك الحدوث ، وأن ميرزا كوتشك جفردان موشك على الظهور ليملأ الدنيا كلها بالعدل والإنصاف ، وفي خلال هذا كان يرد الجواسيس الذين يصلون من الأقاليم ويحملون الأخبار السيئة بأوامر جديدة ولما يجف عرق جيادهم بعد ،

والخلاصـــة أن وقع سنابك خيل البريد لم يكن يصمت في تلك الأيـــام لحظـــة واحدة ، وفي داخل ممرات القلعة الحكومية كان ثمة حركة لا توصف .

يا أحباء القلب ، بمجرد أن أعدت كل المقدمات ، وتماما في نفس اليوم الذى كان قد تقرر فيه سفر كاتبينا ، كان الاستقبال العام الكبير في قصر السلطنـــة ، وتجمع كل الأعيـــان والأشراف ، ولم يكن في المجلس موضع لإبرة ، وفي البدايـــة تقدم خانلرخان مقرب الديوان الذى كان ضخما سمينا وهو يلهث ، فأخرج قرطاس قصيدته الجديدة وقرأها بفصاحة شديدة ، ، وأشار خلالها صراحة مرتين أو ثلاثـــة إلى تطاول الدراويش وتعديهم ، وحشر كلمة المدفع في القصيـدة ، فقال له كل الحـضـــور أحـسنت ، ثم طلب رئيس المنجـمين الإذن ، وبنفس الأسلوب المتقعر الذى تعرفونه أفضل مني ، بدأ في التمهيد ، ثم وصل في النهاية إلى أصل الموضوع وقـــال :

" جعلت فدى لتراب قدمك المبارك ، إن أوضـــاع النجوم السماوية والكواكب العلويـــة ، وكل منها العبد المطيع وحامل الركاب على الكتف لحضرة ظل الله ، بالرغم من أنها تدل بالتمام ، وتستدل بما لا يستدعي الكلام على صحة الذات الهمايونية القرينة بالشرف وعاقيتها ، لكن لأن الحفاظ على عتبة الكبريـــاء هذه فريضة واجبة على كل واحد من العبيد ، فإن هذا العبد المحقر الذى هو تراب للقدم وغباره ، من أرصاد الكواكب والسيارات على توالي الليل والنهار ، قد استنبط أنه في الأيام

والليالي القادمة بداية من سابع الشهر ولمدة ثلاثة أيام ، أن تربيع النحسين واقع في منزل الطالع ، والنجم الطالع بالسعد في حضيض الزوال والوبال ، وفي تلك الأيـــام الثلاثة الذى يستمر فيها التداوم المشئوم لقران النحسين ، فإن الذات عادلة الصفات وشاملة البركات لحضـــرة ظل الله ، تكون – والعياذ بالله ـ هدفا للحقد والجحود من الدهر الغدار والفلك المعوج الدوار .

وبينمـــا كان على هذا النسق يعطي الكلام حقـــه إذ نفد صبر قبلة العالم ، وصـــاح :

– إبن المجحوم هذا .. هل تسيب فكاه ؟ يا رئيس الوزراء ، ماذا لو سلمناه ليلحموا فكيـــه بالفضة المذابة ؟

وعندما رأى خواجه نور الدين رئيس الوزراء أن الأمر سيفسد ، أسرع وتقدم وأدى فروض الطاعة كما ينبغي وقال :–

– سيـــدى ، هب فيهقـــة لسان جناب رئيس المنجمين لأقل عبادك ، هذه هي عادة العلماء فتفضل بالعفو ، لكن أظن انه نظرا لغيرته على الذات الهمايونيـــة لديه معلومات تصادف أنه طرحها على من قبل ، فإذا سمحتم ، أظن أنه رأى في أوضا ع الكواكب خطرا على مقام السلطنة الشامخ ، كما أشار خانلرخان في قصيدته إلى هذه النقطة ، ولكنكم لم تلتفتوا إليهـــا .

تحرك " قبلة العالم" فوق كرسي العرش ، وبصق بصقة في المبصقة الذهبية التي كانت في يد كبير الحجاب ، ثم قال :

– أنا لم أفهم شيئـــا من كلام هذا الشاب الثرثار ، فإنه يتحدث بلغة أبيـــه ، من الأفضـــل أن تتحدث أنت نفسك يا رئيس الوزراء .

وعظم رئيس الوزراء كما ينبغي ، وتقدم خطوة وقـــال :

– لا بد أن الخـاطر الملكي الخطيـــر ، يتـذكـر أنه لم يعد على فصل المشتى الكثير ، والعاصمة الهمايونية بالرغم من أنها تزرى بالجنة المضمخة بالعنبر ، إلا أن فيها برودة خريفية سيئـــة ، وعبيد البلاط محتـاجـون إلى تعريض عظامـهم للشـمس ، والصـلاح للملك والشـعب والأمة ، أن نقدم هـذا العام موعد رحلة الشتـــاء ، وكما رأى المنجمون من رصد الكواكب ليس من الصـلاح أن تبقى الذات المقدسة الهمايونية من سابع الشهر وحتى عاشره على أريكة السلطنـــة .

وفي حين لم يكن يتصاعد نفس من المجلس بل ولا تطيـــر ذبابة ، تحرك قبلة العالم ثانية من مكانه ، وسعل سعلة أخرى ثم قال :

– لأر يا رئيس الوزراء ، مصيبة أن يكون في الأمر حيلة ! حذار وإلا أسلم جلودكم لتحشى بالقش .. ها .. حدثني لأر ، ماذا يصل إلى عقلك المختـــل .

نظر رئيس الوزراء إلى كبير المنجمين وإلى خانلر خان ثم قال :

– لقد قلب خدم البلاط من قبل كل الأفكار ، وتوصلوا إلى نتيجة هي أنه في هذه الأيام الثلاثـــة ، يجب أن يظل الوجود المبارك ذو الجود لقبلة العالم بعيدا عن كرسي السلطنة ، حتى إذا نزل – لاقدر الله– بلاء ، كان ثم آخر فداءً للذات الهمايونيـــة .

هم قبلة العالم بالقيام من فوق كرسي السلطنـــة وصاح وقد جرى الدم في وجهه :

– هه ، يا أولاد القحائب !! دبرتم حيلة جديدة ، أتريدون الخلاص مني بهذه البساطة ؟ يا رئيس السيافين !!

مثل رئيس الجلادين وهو يرتدى ثيابا حمراء من قمة رأســـه حتى أخمص قدميــــه ، وفي يده سيف عريض لامع كبرق البلاء ، وخر على الأرض أمام كرسي قبلة العالم ، وظل منتظرا أوامره التالية بلا حراك كالتمثال تماما . لكن رئيس الوزراء لم يكن من أشجار الصفصاف التى تهزها هذه الريـــاح ، فتقدم خطوة أخرى وقـــال :

– سيـــدى ، فلتسمح لتابعك الذى يفديك بروحه ، وإن كان في الأمر خلاف ، فهذه هي رقبة عبدك . واستشهد ببيت شعر يناسب الحال .أشار قبلة العالم إلى رئيس الجلادين الذى نهض ومضى ، واتخذ لنفسه مكانا قريبا ، ثم أشار إلى رئيس الوزراء أن يقول ما لديــــه ، فقال :

– يدرك خاطركم المبارك أن أتباع البلاط لهم فترة طويلة وقد حرموا من المرح ، وذلك منذ أن ودع الحاج ميرزا قمقم الدار الفانيـــة ، لم تتيسر وسيلة لبهجة الخاطر الهمايوني ، فإذا سمحتم فإن عبيدك المولودين في دارك قد رتبوا فعلا الأمور بحيث لا تؤثر ضربات القدر ، وأيضا تعد وسيلة جديدة من أجل إبهاج خاطركم المبارك .

مسح قبلة العالم على لحيته بيده وقـــال :

– حسنـــا ، حسنـــا . قل لأر يا رئيس الوزراء ، يبدو أن .

الأمور ستحلـــو .

تجرأ رئيس الوزراء وتقدم خطــوة أخرى وأخذ يتابع كلامه على هذا النحو :

- ينبغي أن أعرض على سدتكم الملكية المباركة أن طائفة الدراويش هذه مع كل ما في رقابهم من حق النعمة لقبلة العالم ، قد صاروا بالتدريج سببا في متاعب الممالك المحروســة . وعلاوة على موظفي البلاط الذين يراقبون أعمالهم وأقوالهم، فإن شخصية بارزة مثل خانلرخان بنفســه قد ذهب وشاهد عن كثب ، أن بلغوا من الجرأة أن أخذوا ينمون الأوهام في رؤوسهم ، ويصبــون المدافع .

وعندما سمع قبلة العالم العبارة الأخيــرة ، قام نصف قومه ، وقال وقد احمر غضبــا :

- عجيب !! أيصنعون المدافع ؟ كيف ؟ لكن أين وزير الدواب إبن المجحوم هذا حتى يذهب ويتعلم منهم ؟ حتى لا نبقى عاجزين هكذا في اليوم الأسود ، وفي الأصل يا أولاد المجحومين يا حمقى ، لماذا لم تخبروني حتى الآن ؟ أليس معلوما ما هو عملي بالضبط في هذه المملكــة ؟

تظاهر رئيس الوزراء بالحزن ، وقال :

- جعلت فدى لتراب قدمك المبارك ، إن الأتباع المضحــين بأرواحهم لا يريدون تعكير صفو خاطركم المبارك ، لكن الفرصة لم تفت الآن بعد ، فلتأمروا ماذا نفعل بهذه الطائفة ؟ هل نذهب ونشترى

مدافعهم ؟ وهل تتصورون أن الأمر بهذه البساطة ؟

ضرب قبلة العالم الوسادة المكسوة بالكشمير الأصفهاني بقبضته وقال :

– وما علمي ؟ وأنت أيها الأحمق المخرف تخبرني الآن فحسب بهذا الموضوع ، وتسأل أيضا عن علاجه ؟ إذن فمن أجل ماذا تبيحون لأنفسكم كل هذا المال والجاه ؟

ثم استغرق في التفكير ، وقال وكأنه يحدث نفسه :

– إذن فإبن المجحوم " تركش دوز " قد صدق نفسه ؟! الجحود !! لقد دفعت أنا بنفسي جائزة مقدارها خمس آلاف سكة ذهبية لإثنين من هؤلاء المعدمين فأخذا ذلك الكلب الملعون على غرة وأتيا برأسه . والآن جعلها إبن المجحوم هذا في حسابه . ثم التفت إلى رئيس الوزراء وصاح :

– والآن ، قل لي يا عديم الشعور ، أى غائط تفكر الآن في أكله ؟!

قال رئيس الوزراء : – تعتقد هذه الطائفة الضالة أن معجزة وشيكة الحدوث ، وهم يجهزون أنفسهم لهذه المعجزة . وصبهم للمدافع يدل على أن هذه المعجزة هي على الأقل الوصول إلى الحكم ، وفكر أتباع البلاط في أن يصيبوا هدفين بسهم واحد ، فيساعدون في ظهور هذه المعجزة ، كما يدفعون بلاء القدر في تلك الأيام الثلاثة ، وذلك بأن نترك الميدان خاليا لهؤلاء السادة ، وننقل العتبة المباركة.إلى المشتى ، ولأن المشتى الهمايوني في الولاية الجنوبية وقريب من حدود المماك

المحروسة ، وحركة البريد والسفراء من هناك أسهل ، ربما تصبح أبهة قرب جوارك المبارك سببا في الصلح وإقرار السلام مع الدولة المجاورة الشقيقة ووسيلة تصفية الخلافات بين الطرفين . وختم كلامه ببيت شعر مناسب آخر .

ووصلت غمغمة " أحسنت " و " بارك الله " إلى مسامع قبلة العالم ، فقال راضيا وسعيدا :

- أحسنت يا رئيس الوزراء ، حقيقة أن خبزنا وملحنا كانا حلالا ، ليست خطة سيئة ، كنت قد سمعت أنهم سببوا المتاعب لبعض تدابير الحكومة ، لكني لم أكن أعلم أن شأنهم قد ارتفع إلى هذا الحد بحيث يصنعوا المدافع تحت بصرنا وسمعنا ، الخونة !! حسنا ، أية خطة أخرى دبرت لهم يا ملعون ؟

قال رئيس الوزراء وهو سعيد فرح :

- لتدم الدولة الهمايونية ، سبعة من التجار الذين كانوا يتعاملون معهم شرفهم حكيمباشي البلاط منذ أسبوع بزيارة عزرائيل ، كما صادرنا أموالهم بفتوى من ميزان الشريعة المعروف للحضرة ، ولدينا ترتيب آخر بحيث يحفر هؤلاء الأفاضل قبورهم بأيديهم في غياب ظلكم المبارك ، وبعد أن تنقشع الأخطار الأرضية والسماوية ، ونعود من المشتى في الركاب الهمايوني ، نقدم أيضا سبعة من زعماء هؤلاء الأفاضل فداءً لقدمكم المبارك ، وسبعين آخرون نضع الشمع المشتعل في أجسادهم، وبقيتهم إلى السجن والنفي ، وبهذا

أظن أن الفتنة سوف تخمد .

ونادى قبلة العالم رئيس الحجاب وهو فرح ضاحك بين صيحات استحسان رجال المملكة وأعيانها ، وأمره بأن يحضر ألفي سكة ذهبية في كيسين منفصلين ، ألقى أحدهما في حجر رئيس الوزراء ، أما الثاني فقد عده بيده المباركة ، وقسمه ، وأعطى نصفه إلى رئيس المنجمين والنصف الآخر لخانلر خان مقرب الديوان ، وانتهى المجلس .

(٧)

المجلس السادس

يا أحبـــاء القلب ، الآن اسمعـــوا أخبار تلك الناحية ، أي ما جرى في المدينة . بعد أسبوع من الاستقبال العام في القصر الملكي ، وذات يوم ، انتشرت عند الفجر شائعة في المدينة أن قبلة العالم وكل الوزراء والعسكر والحشم ونسوة الحرم قد رحلوا بليل ، وأن الدراويش سرعان ما يهيمنون على الأمور ، فيقومون بنهب المدينة وإعمال السيف في كل الناس ، وتعبئة دماء الأطفال في زجاجات . وأخذ آحاد الناس الذين كانوا عائدين من الحمام أو المسجد ، أو الفضوليين الذين كانوا قد خرجوا في نفس ذلك الفجر في التجول وراء خبر جديد ، وعلى أبواب الخالات والعمات والأصدقاء والمعارف ، عندما كانوا يلتقون معا ، كانوا ينقلون ظنونهم وتخميناتهم كأخبار موثوق بهـــا ، والأخبار كأشياء رأوها بأعينهم ، وكانت كل جماعة تعبر عن الخوف والرهبة التى كانت تحس بها بالنسبة للمستقبل أو الأمنيات التي كانوا يتمنونها في قلوبهم في صورة أخبار حسنة أو سيئة ، مقبولة أو غير مقبولـــة ، ويقومون بتوصيلهـــا إلى آذان الآخرين ، واولئك الذين كانت منازلهم بالقرب من بوابات المدينة ، كانوا قد رأوا بأعينهم التي في رؤوسهم العربة التي كانت قد خرجت مسرعة من البوابة قبل صيـــاح الديك مع الحجاب والحرس ، ثم إن هناك أيضـــا الحوذية الذين كانوا يجلبـــون في

الصباح الباكر الخضر والفواكه الخريفية ، وكانوا قد رأوا عسكر قبلة العالم من خلف الجبل المجاور للمدينة ، وهو يسوق بأقصى سرعة .

وقليلا قليلا ، عندما ارتفع النهار ، وخرج الناس من منازلهم فرادى بخوف شديد ووجل وحذر ، رأوا أن أبواب القلعة الحكومية مغلقة ، ولا يوجد داخل المدينة دركي واحد أو حارس حتى كنموذج ، كما أن الأسواق مغلقة . لكن حول تكايا الدراويش ومراكز تجمعهم، كان هناك رواح وغدو لا يوصف ، ثم إنهم عندما رأوا أنه لا خبر هناك عن القتل المستمر ، تجرأ عدد أكبر وخرجوا من منازلهم ، وأخذت جماعات العاطلين الحذرة التى تتجه نحو تكايا الدراويش هاتفة " حيدر ، حيدر " و " شاق الصفوف ، شاق الصفوف " تزداد في الحارات لحظة بعد أخرى ، وزادت وزادت إلى أن ارتفعت صيحة " الله ..الله " من كل المدينة إلى عنان السماء ، وانهمر الناس خلف الدراويش .. وما إن أشرقت الشمس ، حتى تقدم الدراويش والناس من خلفهم ، فاستولوا على كل مراكز الحرس ، لكن لم يباغت في أى مركز للحرس أكثر من ثلاثة أو أربعة من الحرس الطاعنين في السن الموشكين على الموت ، كما أنهم لم يكونوا قد آذوا أحدا قط ، وإن كانوا قد فعلوا ، فلم يعد أحد يتذكر حتى يقتص منهم الآن ، فكان أن صرفوا كل الحرس دفعة واحدة ، وداخل كل مركز للحرس عسكرت جماعة من الدراويش ،

وخلال نفس المعمعة قبض على ثلاثة من العملاء السريين للحكومة اتهموا – بالحق أو بالباطل – بأنهم هم الذين اغتالوا اولئك التجار السبعة ، فشهروا بهم ، وطافوا بهم وهم راكبين بوضع مقلوب على ظهور حمير مصبوغة بالحنـــــاء حول الأزقة والأسواق بالمزامير والدفوف والنقارات .

وما أن انتهى أمر مراكز الحرس حتى تبع الناس الدراويش مرة أخرى ، وتقاطروا داخل المدينة لنهب محال بيع الأسلحة ، فحطموا أبواب المحلات ونهبوا كل ما وصل إلى أيديهم من بنادق وسهام وأقواس وهراوات قتال ودروع ، وذهبوا . وعند كل واحدة من بوابات المدينةالسبع ، كلف مجموعة من الدراويش الضخام بأن يكون دخول المدينة والخروج منها تحت إشرافهم ، وأن يدقق في هذا الأمر تماما . وكانت الشمس قد ارتفعت لتوها ، عندما اشتعلت النار في سوق العلافين دون أن يدرى أحد السبب ، وكان أول من احترقت أملاكه صاحبنا مشهدى رمضـــــان العلاف الذى أهرع برأس وثياب محترقة إلى تكية خراطي السلاح ، واعتصــــــم ثم سرت شائعـــــة بأن جواسيس الحكومة قد أشعلوا النار في السوق ، لأنهم كانوا يريدون أن يحدثوا مجاعة في المدينة انتقاما من الناس ، ولم تكن النار قد اندلعت بعد في سوق العلافين ، عندما هوجمت المخازن الحكومية في الطرف الآخر من المدينة ، ونهب

كل ما فيهـــا من أرز وزيت وقمح وشعير ، وكل ما وصلت إليه أيـــدى الناس .

ومن هذا الوقت فصاعدا ، بدأ الخوف من القحط والجوع وانعدام الأمن . وتقاطر كل الناس دفعة واحدة خارج بيوتهم بحثا عن خبر أو مشاركة في مغامرة ، أو تدبيرا لمئونة. وفي نفس هذا الوقت كان أن تقاطرت جماعة أخرى فحطمت باب السجن الحكومي ، وأخرجت المحكوم عليهم بالمؤبد من داخل الزنازين ، وأفرجت عنهم . ولم يكن الظهر قد حان بعد عندما انتشـــر المنادون في المدينة ، ودعوا الناس من قبل " تراب تركش دوز " إلى الهدوء ،وأعلنوا رسميـــا أن قبلة العالم قد غادر مع حرسه وحشمه بحجة المشتى ، والمدينة تحت سيطـــرة الدراويش ، ومن هذا الوقت فصاعدا ، كل إنسان حر في دينه وعقيدته ، وليس لأحد قط أن يتعدى على آخر ، وكل من يرتكب سرقة أو فسقا أو يكســـر باب منزل أحد أو حانوته تقطـــع رقبته على الفور ، وسواء صديقهم وعدوهم آمن على روحه ، بشرط أن كل من لديه في منزله بندقيـــة أو هاون نحاسي ، عليه حتى غروب ذلك اليوم أن يحوله إلى تكية خراطي السلاح ويأخذ ثمنه ، وإلا فللدراويش الحق من صبيحة الغد إذا وجدوا هذين الصنفين داخل أى منزل ، أن يقوموا بمصادرتها وأخذ صاحبها إلى المعتقـــل ، وعند الظهر تماما انطلقت من أسفـــل بوابات المدينة السبع أصوات مدفعيـــة الدراويش ، وأبلغت خبر الاستيلاء على المدينة إلى مسامع أهل القرى المجاورة ، ثم

دقت النقــارات لمدة ســاعــة كــاملة من فــوق كل بوابة من البــوابات السبعـــــة .

ومن الظهر فصاعدا ، صارت أوضاع المدينة أكثر هدوءا ، وما إن بسطت الموائد ، حــتى عــاد الناس من حــيث كــانوا ، وانهــمكوا في الطعـــام ، ثم غلبـهم النعـاس ،كمـا خـمـدت النار في سـوق العـلافين ، وظهـر في الأزقـة الدراويش الذين يحـيطون صـدورهم بـأحـزمـة طلقـات الرصـاص والبنادق فـوق أكـتـافـهم . وبداية مما بعد الظهـــــر، سـار أصحاب الحوانيت الذين كانوا قد اطمأنوا بالا بالتدريج فرادى ، وذهبوا ليفتحوا حوانيتهم ، وأخذ المنادون وكل منهم برفقة درويشين متمنطقين بأحـزمـة الرصـاص يطوفـون على هذا النسق في المدينة ، وهم يعـدون بالأمن والأمـان حتى يطمئن بال أهالى أكثر الحارات الداخلية بعدا . وتماما كالمريض الذى يخرج المرض من جسده ، في البداية يتصبب عرقا بشكل واضح ، ثم يفقد الوعى ويروح في النوم .. كانت المدينة مثل ذلك المريض تماما ، بعد حمى شديدة تصببت عرقا في البداية ، ثم همدت لتنهض من مكانها في الغد بسلامة اللـــــه .

يا أحبـــاء القلب ، عصر نفس ذلك اليوم ، اطمأن بال أكثر أهل المدينة جبنا ، وخرج كل من كانوا قد اختفوا داخل الصنادر ، ووصل رجل يبدو تابعا خائفا ومرتعدا إلى باب تكية خراطي السلاح ، وأخذ يســـأل كل من يقابله عن رئيس الدراويش ، ولكن خلال تلك الضجة حول التكية لم يكن أحد ليأبــــه به ، حتى حدث في النهايــة أن شك

أحد الدراويش في أمره ، من حركاته البطيئة وما كان يقوم به من همس في أذن هذا وذاك ، فتقدم ليرى ماذا وراءه ، وأى شيء يريد ، وعندما فهم من يقصد سألـــه :

– إن لم تكن تقصد عملا ليس من ورائه إلا فضيحتك[1] ، قل لي ، لأر ماذا وراءك.

أجاب صاحبنا قائلا : نعم يا أخي الأكبر ، الحق معك ، الباب لا يكون دائما بمصراع واحـــد .

قال الدرويش :– لا تتفلسف ، قلت لك ماذا تريد من الشخص الأوحد ؟

قال صاحبنا : لا شأن لي بالشخص الأوحد ، لدى عمل مع زعيمكم .

قال الدرويش : هو نفســـه رئيسنـــا ، طلعت روحك ، انطق لأر ماذا تريد .

قال صاحبنا : يا له من بذيء اللســـان .. أحمل إليه رسالة مهمة

قال الدرويش : مصيبة أن تكون قادمـــا من لدن قبلة العالم ؟

قال صاحبنـــا : لا يا أخي ، مالنا وقبلـــة العالم ؟ لقد جئت من قبل ميزان الشريعـــة وخانلرخان ..

قال الدرويش : آهـــاه ، طلعت روحك ، إذن فامش ، وتعال خلفي .

وذهبا معا داخل التكيـــة ، وفي ركن منها كان هناك تل من الأهوان النحاسيـة ، وفي ركن آخر كومة كبيرة من الحطب ، وهزيم كور

---

(١) حرفيـــا : تحدث في سروالك . المترجمة .

حداد كان يصم الآذان من خلف أحد الجدران، ومن المدخنة كان دخان يتصاعد إلى عنان السماء بشكل لا يوصف ، وكان كل واحد من الدراويش مشغولا بعمل ما ، فكانت جماعة تحمل الحطب إلى السرداب ، ومجموعة أخرى تنقل الماء ، ومجموعة أخرى تراجع الأهوان وتصنفها كلا بحسب نوع نحاسه . وصعد الدرويش المرشد وخلفه حامل الرسالة السلالم ، ودلفا إلى إحدى الحجرات في الدور العلوى ، وكانت مفروشة بالحصير ، وفي أركانها ثلاثة أو أربعة من الأنطاع الجلدية ، وجلس ثلاثة من الدراويش المتقاربين في السن فوقها ، وبسطوا خريطة أمامهم ، وانهمكوا في الحديث .وسلم الرجل حامل الرسالة ، وأدى فروض الطاعة ، ووقف وهو يضع يديه على صدره إلى جوار الباب ، لكن الدرويش المرشد قال : الله ، الله ، وذهب إلى جوار أحد الثلاثة وهو تراب تركش دوز ، فانحنى وقبل كتفه ، وهمس بشيء في أذنه ، فاستدار وقال :

– عجيب .. لم أكن أظن أن هؤلاء الحضرات لديهم كل هذه الجرأة والجسارة ، لماذا لم يذهبا مع قبلة العالم إلى المشتى ، قل لي ، لأر بماذا يأمران ؟

قال الرجل حامل الرسالة : سيدى ، قالا لو أعطيتهما الأمان ، لمثلا في حضرتك .

قال تراب : عجيب ، المنادون من الظهر وحتى الآن ، يعلنون الأمان بالأبواق والمزامير .

قال حامل الرسالة : لا يا سيـــدى ، إنهما يريدان منك صك أمان مكتوب يا سيدى .

قال تراب : هذا أيضـــا مرتبط بما يستطيعـــا تقديمه من أعمال .. يريدان أن يأتيـــا هنا ليقولا ماذا ؟

قال حـامل الرسـالة : مـاذا أقـول يا سيـــدى ، فـيمـا أظن الأمر متعلق بالقلعة يا سيدى .

استغرق تراب تركش دوز في تفكيره لمدة لحظـــة ، ثم التفت إلى واحد من الدرويشين الحاضرين وقال :

– مـولانا .. مـاذا تقـــول ؟ عـجيب أن هذا الخـانلرخـان قـد بقي أيضـــا .

قال مولانا : لا أرى أن في الأمـــر عيبـــا . يجوز أن نسلمـهم صك أمـان مـشروط ، لا بد أن خـانلرخـان قـد بقي لكي يؤدى خـدمـة في غياب الحكومة تليق بمنصب ملك الشعـــراء القـــادم .

التفت تراب تركش دوز إلى الشخص الآخـــر وسألـــه :

– ما رأيك يا سيـــد ؟

قال السيد : في رأيي أن نعطي لميزان الشريعة الأمـــان بشرط أن يأتم بإمام الجمعة الذى سنعينه ، ويقلع عن لعبة التكفيـــر ، ويسلم أوقـاف المدارس ومـستـشـفى المدينة ، ويلزم بيتـه مـعززا مكرمـا . أمـا خـانلرخان فمجرد شاعر ، وليس ثم شروط بالنسبة له . نطالبه فحسب

بخمسة آلاف من السكة الذهبيـــة .

قال تراب تركش دوز : أحسنت القول بشكل عجيب ، إذن احمل واكتب .

وكتبوا صكوك الأمان ، وسلموها لنفس الدرويش المرشد الذى ذهب مع الرجل حامل الرسالة ، وعاد الدراويش مرة ثانية إلى مباحثاتهم . قال مولانا :

- أظن أنهما سيحضـــران معهما شروط تسليم القلعـــة .

قال السيد : لا حاجة لشروط تسليـــم ، حركة أخرى ، وينتهي الأمر ، دانتان في صدر بوابة القلعة ، وخلاص !!

قال تراب تركش دوز : - عجيب ، أظننت أن القلعـــة الحكومية سجن يمكن فتح بابه هكذا ؟ يا سيدى ، كل حكومة ، حتى ولو كانت حكومة المدينة الفاضلة ، تحتاج إلى الألاعيب الخفيـــة والحفاظ على الأســـرار حتى تستطيع أن تثبت هيبتها في قلوب الناس ، ينبغي أن نكف أيدينـــا حتى يحل الليل ، ودون ضجة ، تؤخذ القلعة لا بالمدافع والبنادق ، وعلى كل حال من الأفضـــل أن نصبر حتى يأتي المذكوران .

قال السيـــد : موافقون ، وإلى أن يحين حين ظهور المذكورين ، خرج بقايا جيش الحكومة من القلعة وجعلوا كل غزلنـــا أنكاثـــا ؟ هل نعلم ماذا يجرى داخل القلعـــة ؟

قال تراب تركش دوز : كل ما تبقى الآن داخل القلعـــة جزء من الحريم فحسب ، سيكون مبعث قلق فحسب ، ومصدرا للتحريضات

التاليــــة . ثم هناك أيضـــا مخزنان أو ثلاثة للبارود والتموين ، وهذا ما يهمنـــا كـثيـرا . تعلمـان أننا لا زلنا عـجـزة في صنع البـارود ، كل القلعـــة الحكومية تعني بالنسبة لنـــا مخازن البارود والتموين هذه .

قال مولانا : ليس عندي علم بهذا الموضـــوع .

قال تراب : عـجـيب ، وأنت تعلم أن جـلاد البـلاط من أهل الحق ، وتفصيلات مناقشات آخر استقبال عام في البلاط ، والتي قلتها لك ، كانت نقـلا عنه . وبعـد ذلك المجلس حدثت أيضـــا بعض التـدابير نقل إلينـــا خبرها . مع هذه المقدمات التي قاموا بها ، ومع هذه العجلــــة في الذهـاب إلى المشـتى ، يظنون أنهم نصـبوا لنا مـصـيـدة ، نصـبـوا الشـبكة ، ثم ذهبـوا وترصـدوا حتى تخرج الطيور من كناتهـا في هوى الحب ، فيصلون ويشدون الحبل!

قـال السـيـــد : في هذه الحـالـــــة ، هل كـان من الصـالح في الأصــــل أن نبدى أنفسنـــا على الملأ ؟ والآن هل يمكن كبح جمـاح الناس ؟

قال مولانا : هل يعني هذا أنك تقول أنه كان ينبغي علينا أن نجلس واضعين كفا فوق كف ونكتفي بالفرجـــــة ؟

قال تراب تركش دوز : أتعلمان إلام كانت الأمور ستؤول إليه إذا لم نكن قـد أخذنا المبـادرة ؟ وإذا كنا قـد جلسنا واكـتـفينا بالفرجـة ، لكان الناس أنفسـهم قد تواجدوا على السـاحـــة ، مـا دمت قـد فـتحت باب القـفص ، فـلا بد أن يحلق الطائر ، وإن لم يطر ، فـالويل له . كـان من

المقـرر أننا إن لم نحسن التـصـرف ، فـبـتـحـريض من نفس مـيزان الشريعـة هذا ، وبأموال الأوقاف ، وبمساعدة عملاء الحكومة السريين الذين بقوا حتى الآن ، يقومـون بتـحـريض الناس علينا ، ومن ثم يقـوم أهل المدينة أنفسهم باستئصـال شأفتنا .. كانوا كما يقول المثل يريدون اللعب على الحبلين ..

قال السيـد: حسنـا ، حسنا ، وماذا بعـد ؟

قال تراب : بقية الأخبار على النحو التالي : في هذه الفترة ، يصل جيش الحكومة إلى الحدود ، وتوقع معاهدة الصلح مع الدولة المجاورة ، وفي المقـابل لا بد أن يعطوا شـيـئـا ثم يأخـذوا منهم المدافع والطوبجيـة من أجل قمعنا ..

وعند هذا الحد من المناقشـة ، فتح الباب ودخل حسن آقا الإبن الأكبر للحاج يعلوه الغبار ، وقد وصل لتوه من السفر ، قال : الله .. الله ، ثم تقدم وقبل كتف تراب تركش دوز ثم جلس . وعزاه تراب في أبيه وسأله عما حدث . وقدم حسن آقـا تقريرا مختصرا عما كان قد حدث في القرية والمساعدات التي قدمها له كاتبانا ، وكيف وصل خبر ما حدث في المدينة إلى القرية في الوقت المناسب ، والقبض على مساعد المأمور والحراس وتقييدهم ، وتقسيم الأرض ، ثم نهض قائلا :

لو تسمحون لي ، أنصـرف .

أجلسه تراب إلى جواره ، وقال : بهذه السرعة ؟ ظل هنا ، فأنا أحتاجك في أمر ما . ثم واصل كلامه السابق قائلا :

- نعم ، الحكومة نصبت لنا مثل هذا الفخ ، والآن ينبغي علينا أن نبدل هذا الفخ إلى حصن . لقد جرى الحديث في المجلس السلطاني عن تربيع النحسين لمدة ثلاثة أيــــام ، وتقديمنا نحن على سبيل الفداء ، لكن : إلى أن يصل جيش الحكومة إلى الحدود ، وتتم مراسم تقديم الهدايا والتحف ، وتبدأ المباحثات مع الدولة المجاورة ، يلزم شهر على الأقل ، ولو أننا استطعنا أن نصنع في خلال هذه الفترة مدفعا كل يوم ، ونعد أكبر عدد من البنادق ، فقد كسبنا اللعبة ، وفي هذه الفترة ، إذا أمكن أن نمد الثورة إلى الأقاليم ، ونخلي القرى الواقعة في طريق جيش الحكومة من التموين ، في هذه الحالة إذا عادت الحكومة بألف مدفع محطمة للقلاع ، فلن تكون ندا لنــــا .

ثم التفت إلى حسن آقــــا وسأله عن تفصيلات حياة الكاتبين ، وأفضى إليه حسن آقا بكل ما كان يعرفه . فقال تراب تركش دوز :

- عجيب !! من الممكن إذن أن نأمل ألا يتركانا وحدنا .. وهذه مهمتك ، ثم إنني جعلت الإشراف على خبز المدينة ولحمها تحت مسئوليتك . ينبغي أن تواصل عمل المرحوم الحاج ، وقد أمرت بأن يوضع مائة فدائي مسلح تحت إمرتك . فأوصل التموين إلى الأهالي بأى شكل تراه صالحا ، وعليك أن تأمر بإلغاء الضرائب من على البوابات وتقوم بخفض الأسعار ، وتشترى - بقدر ما تستطيع - التموين من القرى الموجودة على طريق الجيش بضعفي السعر أو ثلاثة أضعافــــه، يجب أن يكون تموين المدينة لمدة ثلاثة شـهـور على الأقل جاهزا في المخازن . والآن : إنهض واذهب إلى هذين الكاتبين صديقيك . انصرف

حسن آقـــا ، وعاد الحاضرون في المجلس مرة ثانية إلى المناقشـــة التي كانت دائرة بينهم . قال السيـــد :

– هل فكرت قط في أن نقوم بعمل ما من شأنه ألا تتم معاهدة الصلح هذه ؟

قال تراب تركش دوز : أنا أنتظر إشارة جلاد البلاط الذى ذهب إلى الجيش . ويمكن أيضـــا إذا لزم الأمر أن نرسل جماعة من الحريم مع التحية والإكرام لتوديع الجيش أو لاستقباله . وغدا نرسل السيد مع سبعة من السفراء إلى الحدود . نستطيع نحن أيضـــا أن نعقد صفقة مع الدولة المجاورة . دعونا أولا نطمئن بالا من هذه القلعة ، ينبغي أن تفهمهم يا سيد أن مدافعهم والعاملين عليها هي لقمعنا إسميـــا ، لكنها لقتالهم هم أنفسهم في الواقع .

يا أحباء القلب ، كان الحاضرون في المجلس عند هذا الموضع من المناقشة عندما ارتفعت أصوات لهثات خانلرخان ودقات عصـــا ميزان الشريعـــة ، ودخل ميزان الشريعة ومن خلفه خانلرخان . ومن بعدهما دخل الدرويش المرشد ، ووضع كيس نقود وكتاب التعهد الملفوف على هيئة أنبوبة أمام تراب تركش دوز وانصرف . وكان الحاضرون في المجلس قد نهضوا لقدوم الداخلين ، وحيوهما بهزة رأس ، ثم أجلسوهما في صدر المجلس على النطوع . ومنذ اللحظة الأولى لدخوله، ظل ميزان الشريعة يغمغم همسا وهو يتلاعب بمسبحته دون أن يحيي أحدا أو يرد تحيـــة أو يجامل أحدا ، وعندما جلســـا خيم الصمت

على المجلس ، فسأل تراب تركش دوز خانلر خان :

– بماذا يهمس جناب السيد ؟

قال مولانا :– لابد وأنه يقرأ دعاء " وإن يكاد " .

فقال السيد : لا ، لابد وأنه يقرأ : " هذه جهنم التي كنتم توعدون " .

وضحك الجميع لهذه الدعابة ، وبمجرد أن انقشعت سحابة الكآبة عن المجلس ، حتى جلس الجميع أكثر راحة ، وبدأ تراب تركش دوز الكلام :

– أنا سعيد لرؤية السيدين ، كما أرجوا ألا يكون أهل الحق قد ألحقا أدنى مضايقة بالسيدين .

قال خانلرخان : لست أظن أن هذه المضايقات تكون من مصلحة أهل الحق . وارتجل بيتا من الشعر يوافق الحال . وواصل تراب تركش دوز حديثه .

– بعهد الأمان الذى بين أيدى السيدين يكونان في أمان حتى وإن قاما بإيذاء أهل الحق . لكن السيدين يعلمان جيدا أن الناس عندما تثور لتصرف ما ، فإنه لا يمكن الوقوف أمامهم ، ووجود السيدين بيننا في صحة وسلامة هو لمصلحة الحكومة التي لابد أنها لم تأخذكما معها لسبب ما ، وهو أيضا لمصلحتنا ، وذلك لكي نثبت أننا لسنا وحوشا مفترسة ، أما وأنتما موجودان فأنتما مضطران إلى

التعاون معنـــا .

ثم سـأل السـيــد : والآن تفـضـلا بالكلام ، لنر مـا سـبب إبداء السيدين الإهتمام بنا ؟

وأخرج خانلرخان – الذى كان يستطيع الحركة بمشقة لضخامة جسده – ساقه اليمنى بمشقة من تحت جسده ، ووضع ساقه اليسرى بدلا منها ، ثم قال :

– في فترة غياب قبلة العالم وطبقا للأوامر الهمايونية ، صار حضرة إمام الجمعة وأنا مسئولين عن كفالة أمور القلعة والحريم الهمايوني ، ولكن لأن التعهد بمثل هذا الأمر الجلل ليس متيسرا من هذين الشخصين الضعيفين ، فمن هنا جئنا لطلب المساعدة . ثم ارتجل مرة أخرى بيتا من الشعــــر . وأخرج الأمر المكتوب من كم قبائه ، وفتحه ، ووضعه أمام تراب تركش دوز .

قال مولانا : أنتما تعلمان أفضل منا أنه حتى الآن لم تمتد يد قط إلى القلعـــة ، لكن في الحقيقة ، لماذا لم يذهب السيدان مع الجيش ؟

قال ميزان الشريعـــــة الذى كان قد بقي صامتا إلى ذلك الوقت يتلاعب بمسبحته وهو متأجج الوجــــه :

– لا إله إلا الله .. على كل حال ، هذا العبد الفقير يعرف واجبه . وطوال عمرى وواجب الناس الشرعي في يدى . وعلى أية حال فمنذ ستين عاما والفقير يتعيش من أهل هذه المدينة ..أكان على أن أنهض

إذن في هذه الأيام العصيبة وأمضي إلى أين ؟

وردد لا إله إلا الله أخرى ، وهو في قمة الغضب ، ثم صمت . وسعل خانلرخان ثم تحدث قائلا : – ثم إنه لا يصح أن تظل أبواب القلعـــة مغلقة إلى يوم القيامة ، فنســـــاء الحرم الهمايوني لهن أرواح أيضـــا . والله يعلم كم منهن لم يهلك خوفا حتى الآن .

قال مولانا : إذن فنحن في الحقيقة نتعامل مع حاكمي المدينة المعزولين . أليس كذلك ؟ حاكم الشـــرع وحاكم العرف .

وقال السيـــد : وفي الأساس ، لماذا لم يذهب مخدرات الحرم مع الجيش ؟

قال تراب : على ما أعتقد ، لأن أسلوب الدراويش في هذا المجال يوافق هوى قبلة العالم ، أليس كذلك ؟

قال ميزان الشريعــة : الله أعلم .. أى علم لأى إنســـان بما سيحدث ؟ على كل حال هذا هو مفتاح القلعة . وأنا من الآن فصاعدا ،أسقط كل إلتزام عن نفسي شرعا وعرفـــا وبهذه العبارة أخرج من تحت عباء ته مفتاحا كبيرا مطليا بالفضة ووضعه أمام تراب تركش دوز .

قال السيد : الآن فلتتفضل ولتقل لي ماذا نفعل بهذا الحريم ؟ هل لدينـــا خبز فائض ؟

وتحدث خانلرخان قائلا : وهل بنيت قلعة بهذا الحجم فقط من أجل الحريم ؟ إذا تعهد السادة بالمحافظة على الحريم في مقابل

الاستيلاء على القلعة الحكومية ، فقد انتهت مهمتنا .

قال مولانا : ماذا يكون لو طلبنا من خانلرخان أن يكون هو شخصيا كبير القائمين على الحرم ويكتفي بهذا المنصب بدلا من ملك الشعراء ؟

قال تراب تركش دوز : أحسنت . كيف يتم هذا يا جناب السيد ؟ الليلة وفي حضور السيدين نفسيهما نفتح باب القلعة ، ومن أجل أن يطمئن السيدين بالا ، نرجو السيد خانلرخان أن ينتقل هو وأسرته إلى القلعة الليلة ، ويضع الحريم تحت حمايته . ثم نعطي وثيقة الأمان الخاصة بالسيدين ليُنادى بها في المدينة ، وليعلم الجميع بالمنصب الجديد لخانلرخان . كما نتوقع من حضرة إمام الجمعة أن يأتم في صلاة المغرب اليوم بإمام الجمعة الجديد حتى يطمئن الناس بالا ، ثم مروا المؤذنين أن يقوموا بعملهم كما كان الأمر فيما سبق ، فلا يمكن تغيير إيمان الناس في يوم واحد بضرب العصا .

وانتهى المجلس بهذا الكلام . وجمع الدراويش في هذه الليلة حاجياتهم من التكايا وحملوها إلى القلعة الحكومية ، وتركوا التكايا لإدارة شئون الناس . ففي إحداها قام ديوان الشرع والقضاء ، وفي ثانية الإشراف على حساب التموين ، وفي ثالثة إدارة الضرائب ، وفي الرابعة ديوان الاستيفاء لجمع الأهوان وتصنيفها .. وهلم جرا ... وفي اليوم التالي لذلك اليوم هدأت المدينة وسكنت ، وانصرف الناس إلى أشغالهم اليومية ، وانخفض سعر الخبز واللحم

قرشا للمن ، كما أُلغيت الضرائب والأعشار وبقية وجوه الجباية الحكوميـــــة .وسار دراويش وتحت آباطهم الدفاتر والسجلات لتقدير أموال كل اولئك الذين كانت ممتلكاتهم وأموالهم وحوانيتهم قد احترقت في أحداث اليوم السابق أو نهبت . ووقفت عربات الدراويش على رأس كل حارة وممر وهي مليئة بالأهوان الحجرية ، وكان الدراويش يدقون أبواب الدور واحدا بعد الآخر يجمعون الأهوان النحاسيـــة ويعطون في مقابلها الأهوان الحجرية . ومن ناحية أخرى كانوا قد وضعوا سبعة مدافع من صنع الدراويش فوق عربات ثقيلة ، يجر كل منها بغلان ضخمان مقطوعا الذيل والأذن ، وكانت العربات تطوف دائما داخل المدينة . وكان الناس الذين لم يشاهدوا مدافع يتقافزون فوق رؤوس بعضهم البعض وأكتافهم لمشاهدتها ، وفوق كل مدفع كان يقف مناد طويل القامة وجهوري الصوت ، يدعو الناس ويحمسهم لتغيير الأهوان ، وينشد أحينا شعرا في محاسن المدفع الموجود تحت قدمه ، وأن دانته تسبق الشهاب الثاقب ، وضربته تثير الهلع في قلوب الكفار بهذا الشكل وذاك الشكل .

لكن اسمعوا ما كان من أمر أهل المدينة ، ولم يكن أغلبهم يعلم خفايا الأوضاع وعلى أى شكل تسير . كان كل ما فهموه أن قبلة العالم قد حســـــر ظله ومضى . وأن أسعار خبزهم ولحمهم قد انخفضت ، ولم تعد أجسادهم لحظة بلحظة تصطدم بجسد حارس أو دركي حكومي ، وأهم من هذا كله أنهم عندما كانوا يرون أنه لا خبر هناك عن القتل وسفك الدماء والنهب من قبل الدراويش ، كانوا يسعدون ويسرون ،

ويسرعون بقلوب مطمئنه لرؤية المدافع التى صنعها الدراويش، كانوا كأنما رفع شيء عن كواهلم يتنفسون براحة أكثر ، ويتمازحون بحرية أكثر ، ويساومون بشكل أكثر من ذى قبل في معاملاتهم . لكنهم كانوا جميعا يحسون بقليل من القلق وهو: لماذا أجبروا على تسليم أهوانهم النحاسية والتي كانت حتى ذلك الوقت ملقـــاة في ركن من المطبخ وذلك لكي يضعوا مكانها الأهوان الحجرية القبيحة التي من صنع الدراويش ؟ ثم إنها الأهوان التي توارثوها أبنا عن جد ، والآن وقد خلا مكانها كانوا يفهمون أية ذكريات كانت تحملها لهم ، وكيف كانوا قد تعودوا على جرس أصواتها ، وغداة استيلاء الدراويش على الحكم ، انتشرت شائعة بالتدريج داخل المدينة أن اخلاء البيت من الهاون النحاسي نحس لأن كل هون يؤخذ يأخذ بركة البيت معه . وبلغ الأمر حدا أن بعض المنازل لم تقبل تغيير أهوانها ولم تسمح للدراويش بالدخول ، واضطر الدراويش الذين كانوا جميعا مأمورين بالمداراة وحسن السلوك مع الناس عدة مرات إلى كسر أبواب الدور بالقوة ودخولها ومصادرة الأهوان النحاسيـــة بعبوس وسب وشتم وإحداث ضجـــة وفوضى . وقد تكررت هذه الضجة وتكررت حتى حدث بالقرب من ظهيرة نفس ذلك اليوم أن انطلق ثلاثة أشخاص من أهل حى السروجية ، وذهبوا إلى ميرزا أسد الله ، الذى كان قد جلس إلى بساطه المعتاد الموجود بجوار المسجد الجامع ، وقد وضع منقد نار إلى جواره ، وانشغل بنسخ ديوان مختارات من الشعر. كان الأشخاص الثلاثة عبارة عن رجلين في أواسط العمر ذوى لحية شهباء وامرأة ، وألقى كل منهم

بالسلام ، وجلسوا بجوار فرش ميرزا ، وبدأ أحد الرجلين قائلا :

– يا ميرزا ، كنا نريد أن نعلم إلى من ينبغي أن نقدم شكاوينا ؟

وأغلق ميرزا المجموعة الشعرية ونحاها جانبا ، وأغلق محابره الملونة التي كان قد وضعها إلى جوار المنقد وقال :

– والله لا أعلم حقيقة ، حتى الآن كانت هناك شرطة ومخفر وسجن، قل لي أنت ، فقد كنت أظن أن مكتب الشكاوى قد أغلق ، وأظن أنه ينبغي تقديم الشكاوى الآن للشخص الأوحد .

وتأففت المرأة التي كانت قد جاءت لكتابة الشكوى ، ومن تحت حجابها كانت جمة من الشعر الأسود قد نزلت على جبهتها ، وقالت :

– ويلاه ! عجبا ! يا لها من أسماء .. أهو رجل يقدر الأمور ؟ كأن هناك أزمة في الأسماء !!

ضحك الرجال ، وسأل ميرزا :

– والآن ، ما هو موضوع الشكوى ؟

بادرت المرأة بالجواب وقالت : لاشيء ، أولاد الملاعين جاءوا اليوم ، وحملوا هوني بالقوة وأخذوه ، هوني النحاسي العزيز الذى كان كقطعة من الجواهر ، لو كان زوجي على قيد الحياة لأفهمهم في يد من تكون الدنيا ، ولحطم عظام ساق كل من تسول له نفسه أن يقتحم المنزل ، لكن للأسف لم أكن أنا الضعيفة ندا لثلاثة من الدراويش الضخام . وصمتت .

وسأل ميرزا : والآن ، هل دفعوا ثمنه أو لا ؟

قالت المرأة : داهية تأخذهم .. هذا الهون العزيز كان التذكار الوحيد من أمي ، وكانت جدتي قد وضعته بيدها في جهاز أمي ، ووضعته أمي بدورها في جهازى ، أقول شيئا وتسمع شيئـــا آخر ؟ أريد منك أن تمسك بالقلم وتكتب لهم .. أليس الناس أحرار التصرف في أموالهم ؟ أولاد الملاعين .. لايقدرون على الحمار فيشدون البردعة ، أريد أن تكتب لهم شكوى لم يسمعوا عنها حتى من آبائهـــم .

ثم تحدث الرجل الثاني الذى كان ساكتا إلى ذلك الوقت ، وقال :

– تعلم يا ميرزا ، ثلاثتنا لدينا شكوى واحدة حول نفس قضيـــة الهون ، ربما تبدو تافهة ، لكن الظلم دائما يبدأ من الأشيـــاء التافهة ، لم يكن الهون ميراثا عن أبي ، كما أنني لم أكن متعلقا به ، ولم تكن له قيمة تُذكر ، لكن تعلم يا ميرزا حقيقة أنني لا أحبذ أن يصب البارود داخل الشيء الذى كانت زوجتى تدق فيـــه اللحم . هذا فحسب .. لا أحبذه .. أليس كذلك ؟ تعلم يا ميرزا أن هذه الكرة الحامية التي يقال أنها تنطلق من المدفع لا تُؤكل .. أنت معي ؟ هه ؟ يقولون أنها تقتل الإنسان .. صحيح ؟ الحقيقة يا ميرزا أنني لم ألحق أذى بأحد قط ، وحقيقة أن قبلة العالم وحكومته ارتكبوا كثيرا من الظلم ، وحقيقة أن الدراويش يقدمون الوعود الكثيرة .. لكن ما دخلي أنا بهذا الخلاف ؟ وتعلم يا ميرزا أن موضوع الأهوان هذا لا يبشـــر بالخير ، هو أول الظلم ، أجل أول الظلم ، وأيضـــا من ركن المطبخ ...

وقال ميرزا أسد الله بمجرد أن سمع هذه الكلمات :

– كيف يمكن أن أكتب لكم أنتم الثلاثة عريضـــة واحدة ؟

فقال الرجل الذى كان قد تحدث فى البدايـــة :

– لا يا ميرزا ، حقيقة أن موضوع شكوانا نحن الثلاثـــة واحد ، لكن الهون الذى كان في منزلي كان وقفا ، ويمكن أن يدق عجل بأكمله فيه ، وحوله نقش بعرض كف اليد أى أن له تاريخـــا يعود إلى أربعمائة سنة خلت ، وكم بذل ثلاثة أشخاص من جهد حتى رفعوه من فوق الأرض ، كان قد غاص فى ركن بالفناء لنصف ذراع ، وهؤلاء لا تقوى لديهم ولا دين ، لكنِ قل لى أنت .. هل يصح أن يسلب مال الوقف هكذا ولا يُدفع شيء في مقابله ؟

ابتسم ميرزا وقال : – ربما تقول أنه فضول لا يصح منى .. لكن ينبغي أن أفهم ما سأكتب ، فقل لى لأفهم .. ماذا كان يفعل مال الوقف فى منزل جنابك ؟

فأجاب نفس ذلك الرجل :– هكذا ، وهذه هي المصيبة في الموضوع ، إنه كان وقفا على الأولاد الذكور فقط ، وإلا كنا قد بعناه مائة مرة حتى الآن ، كان جدنا الأكبر قد أوقفه على الحسينيـــة ، ولخمســـة أجيال قمنا بأعمال البر والخير في هذا الهون ، وبعد أن مات الآباء ، لم يبق شيء ، الحسينية بدورها هدمت وضُمت إلى القلعــــة.. لست أدرى أتذكر هذا أو لا ؟ كان ذلك عندما وسعوا حظيرة القلعـــة منذ عشرة سنوات ، ولنفس هذا السبب هدمت حسينيـــة عائلتنا ، ولم تأخذ فى

مقابلها أقل شيء .. ومن كل ذلك الهيلمان ، كان هذا الهون قد بقي فحسب .. مثل باب المسجد .. لا يُنتفع به ، فوضعناه في ركن من الفناء، وفي كل عام نستخدمه فى ليلة عشاء الغرباء(١) وفي جلسة واحدة كنا ندق فيه مائة من من اللحم ونعد الكفتة الصغيرة ونضعها بين طيات الأرز ونوزعها على خلق الله .. والآن وقد أتوا وحملوه وأخذوه ، يمكن به أن يصنع مدفعان .. والآن إن أتوا وقالوا كم ثمنه ، سوف أقول هل ينبغي أن تحدد قيمة لأموال الوقف ؟ فضلا عن أنهم وضعوا بدلا منه ثلاثة أهوان حجرية بحجم كف اليد وذهبوا .

وعندما انتهت شكوى الشاكين ، قال ميرزا أسد الله :

– مع كل هذا يمكن كتابة عريضة واحدة ، ومن الأفضل أن يكون الأمر هكذا ، فعندما تكون الشكوى جماعية ، يمكن أن تصل إلى كل أذن صماء ، ثم إنه من الممكن أن يصبح هون الوقف هذا شفيعا للهونين الآخرين .

ويدأ في كتابة العريضة ، ولم يكد يصل إلى السطر الثانى ، حتى تدخلت المرأة الشاكية وقالت :

– حقيقي يا ميرزا يجب ألا تنسى أن علامة هونى العزيز أن لحافته إطارا .

وأتم ميرزا كتابة العريضة ، وبينما كان يقرأها للشاكين إذ

(١) ليلة عشاء الغرباء هي ليلة الحادى عشر من محرم أو ليل نهار عاشوراء حيث بقي من تبقى من آل البيت رضوان الله عليهم كالغرباء بعد مصرع الحسين رضوان الله عليه . المترجمة .

أطل حسن آقا ابن الحاج ممرضا يتبعه إثنان من الدراويش يحملان البنادق ، تبادلا التحايا ، ودخل الدرويشان المسجد ، وجلس حسن آقا .

قال ميرزا : وصلت في الوقت المناسب يا حسن آقا ، إسمع أنت أيضا ربما نكتب كلمتين على سبيل التوصية أسفل هذه العريضة وتيسر أمور عباد الله ، وتلا العريضة من بدايتها إلى نهايتها بصوت عال . وأخذت المرأة الشاكية تقول وهي منهمكة في السماع " يا روح قلبي .. جعلت فدى هذا الخط " بينما أخذ الرجلان الشاكيان يتحسسان لحيتيهما ويهزان رأسيهما . وكان حسن آقا قد استغرق في التفكير ، وعندما انتهت تلاوة العريضة أعطاها ميرزا لحسن آقا الذي كتب أسفلها " أستعين بي وأنا المسئول إلى العترة الواحدة في موضوع الاستيلاء على الأهوان الثلاثة . حي على خير العمل . حسن " وأعطاها لأحد الرجلين الشاكيين ، ثم نادى على أحد الدرويشين من داخل فناء المسجد ، وأمره بأن يرافق الشاكين ، ويرى أية جماعة من الدراويش صادرت أهوانهم ، وأن يوصل الأهوان بمجرد أن توجد إلى منازل أصحابها ، ويأخذ ايصالات بها ويأتي بها إلى ميرزا . ثم نهض الشاكون ، وقبل أن تخرج المرأة النقود من طرف طراحتها ، مد أحد الرجلين يده ووضع أجر كتابة العريضة فوق منضدة ميرزا أسد الله الصغيرة ، وألقوا السلام ، ثم ذهبوا في رفقة الدرويش حامل البندقية .

يا أعـزاء القلب .. بمجـرد أن صـار مـيـرزا أسـد الله وحسـن آقـا وحيدين ، هشا وبشا لبعضيهما من جديد ، ثم قال حسن آقا :

– هل زال عنك تعب الطريق ؟

قـال مـيرزا أسـد الله :– لـم يكن هناك تـعب في الطريق ، لكن يدى اليســــرى تؤلمنى ، أعتقد أن الجند كانوا قد قيدوها بشكل سىء .

قـال حـسن آقا :– ولو كـانوا قد أتوا بك إلى المدينة على نفس ذلك الوضع ، ماذا كنت ستفعل ؟ هيا انهض ، فلنمض إلى رفيقك ، فأنا لدى كلام مـع كليكمـا ، ثم إن المكان هنا بارد كـمـا لا يصـح أن نتحـدث أمـام الناس .

ونهض كلاهما ، وطوى ميرزا أسد الله النطع في الفرش ، وأوصى به البقال المقابل له ، وأخبره إلى أين سيذهب . وهرول مع حسن آقا إلى داخل المسجـد . كان الوقت قرب الظهـر ، ولم يكن ثم خبر عن الضـجة اليومية للناس حول الحوض ، كمـا أن رئيس حفظة الأباريق الذى كان قد جلس في مكانه المعتاد عاطلا قد طأطأ رأسه حتى لا يرى ميرزا .

كان ميرزا عبد الزكي فـي ركن من وكالته منفردا ، قد أقعي أمام منقد نار ، وتبـادلوا التـحـيـات وجلسـوا، وسـألوا عن الأحـوال ، وذكـروا طرفا مما حدث في القرية ، ثم شكى ميرزا عبد الزكي من كساد السوق ، ومـرة واحدة وكـأنه تذكـر أمـرا قد نسـيه ، إلتفت إلى مـيرزا أسـد الله قائــــلا :

– لماذا لم تطرح على هذه الفكرة منذ وقت مبكر يا عزيزى ؟ هـــه ؟

وسأله ميرزا أسد الله :– أية فكرة يا جناب السيـــد ؟

قال ميرزا عبد الزكي : – لقد انتهى العمل يا عزيزى فى إطـــار السجادة . ثم التفت إلى حسن آقا وأضاف :

– يا عزيزى .. ميرزا هذا يعلم الكثيـــر ، لقد ألهى زوجتى بعمل مستمر وشغلها[1] بحيث لم يعد عندها وقت لحك رأسهـــا يا عزيزى . ثم قص على حسن آقا ما حدث ، وضحك ثلاثتهم . ثم قال حسن آقـــا :

– أقول بلا مقدمات ، نحن في حاجـــة إلى وجودكما أنتما الإثنين، ولقد دعاكما تراب محلة الحق رسميـــا ، وعصر أمس جرى على لسانه المبارك قوله " إذن يمكن أن نأمل ألا يتركانا وحدنـــا " .

ظل ميرزا أسد الله صامتـــا ، بينما سأل ميرزا عبد الزكي سعيداً ضاحكا :

– وأى عمل يتأتى منا يا عزيزى ؟

قال حسن آقـــا :– يحتاج تسجيل كل هذا السلاح وهذه المؤن وإثباتهما إلى قبيلة من الكتبة ، وأهل الديوان إما أنهم ذهبوا مع الجيش ، أو عثر كل منهم على جحر واختفى فيـــه ، وأنا قلت لنفسى إن هذا العمل هو عمل ميرزا عبد الزكي ، يأتى ويستعين بجماعة ، ويقوم بتنظيم الدفاتر والسجلات . وهناك أيضـــا أعمال ديوان القضـــاء وهى لا

---

(١) حرفيـــا : وضع يد زوجتى وقدمها في قشر جوز . المترجمـــة .

تتأتى من أيدينا ، إذ ينبغى أن يتولاها شخص يكون موضع ثقة من الأهالى ، قلت : لعل ميرزا أسد اللـــه يقبل .

أزاح ميرزا عبد الزكى التراب من فوق نار المنقد ، وتحرك ، ثم قال :

– لا اعتراض عندى يا عزيزى ، لكن دعنا نرى ماذا يقول ميرزا أسد اللـه .

قال ميرزا أسد الله :– هذا العمـــل يفوق قدراتى ، فلقد خُلقت لكتابة العرائض على باب المسجـــد .

قال حسن آقـــا : دعك من المجاملة .. فهذه الأيام ليست أيام الهرب من المسئوليـة .

وأضاف ميرزا عبد الزكي :– يا عزيزى .. لماذا تقوم بالحط من قدر نفسك ؟ إنه قبـــاء خيط على قامتك ، وأى شخص أصلح يمكن العثـــور عليه يا عزيـــزى ؟

قال ميرزا أســـد الله :– أنا لا أحط من قدر نفسي ، كما أننى لست الشخص الذى يتهرب من المسئوليـــة ، لكنكما كلاكما تعلمان أنني لست من أولئك الذين يقومون بأى عمل يُعرض عليهم ، ففي رأيي أن أساس أى عمل هو الإيمـــان ، المبادىء ، في البداية يكون الإعتقاد ثم يكون العمل ، ولابد أنكما سمعتما عن قصـــد القربـــة ، وإذا كان الآخرون يقومون بالشعائر الدينيـــة فحسب بقصد القربة ، فأنا أقوم بكل عمل بقصـــد القربة ، وفى حين أننى لا أدرى حتى الآن ما يدور في رؤوسكم أصـــلا . ولا شك أننى لا أقوم بتكفيركم ، إلا أنني لست

أيضـــا مؤمنا بكم ، وفى مثل هذا الوضـــع ، أى عمل يتأتى من يدى ؟

قال حسن آقا : - كيف لا تعلم ما برؤوسنـــا ؟، لقد قمنا بطرد حكومـــة .

قال ميرزا عبد الزكى :- أنتم لم تطردوها يا عزيزى ، لقد ذهب قـبلة العـالم إلى المشـتى ، وأنتم رأيتم الميـدان خـاليــــا ، وها أنتم تركضون ، نحن لا نختلق يا عزيزى .

قال ميـرزا أسد اللـــه : - حتى الناس يقولون أن الحكومـة قد نصبت لكم مصيدة .

قال ميرزا عبد الزكى :- إذن يا عزيزى ، مصيبة أن تكون خائفا؟ أليس كذلك ؟

قال ميرزا أســد الله : يا جناب السيـــد ، أنا ثابت فى مكانى، وليس من اللازم أن أواصل دق رأسى بالبـاب والجـدار ، وأن أقـوم كل يوم بملعوب جديد ..

قال ميرزا عبد الزكي :- يا عزيزى ، ما الحاجــــة للتعريض ؟ حقيقة أننى أهل مغامرة ، لكن بالنسبة للمغامرة التى حدثت فى القرية ، أظن أن دورك كان أكثر من دورى .

قال حسن آقـــا : أنظر يا ميرزا أسد اللــــه ، حقيقة أن الحكومة قد نصبت لنا مصيـــدة ، لكنا بدلنا هذه المصيـــدة إلى حصن من أجل كل اولئك الذين قاوموا الظلم ، وما دمت قد جمعت

كل المظلومين ، يمكن بسهولـــة اقتلاع جذور الظلم . لنر ، أخشى أن تكون قـضـيـــة الأهوان هذه قد تركت فى قلبك شـيـئـــا ، أليس كذلك ؟ لقد انتـهى ذلك الزمـان الذى كـان فـيـه صـوت الهـون مقدسـا ، والآن فإن مصيـر عالم القدس نفسه معلق بهزيم المدافع ، ثم إنك تعلم أننـا على حق ، فلقـد ضـقنا تمامـا من المذابح الدائرة بين السنة والشيعـة ، وشـمـرنا من أجل خدمة الناس .

قال ميرزا أسد اللـه : الحكومة كانت أيضـا تردد كثيـرا من هذه الكلمات الضخمة .

قال حسن آقا : لكنك تعلم أنه ليست لدينـا فيهقة في الكلام ، وحتى الآن لم يجف كفن أبي بعد ، نحن نضحى بالأرواح ، ووضعنا رؤوسنـا على أكفنا ، ونؤكد أن النصر حليفنـا .

قال ميرزا عبد الزكى : – يا عزيزى ، أيضـا صباح اليوم ، أرسل خانلرخان مقرب الديوان إلى من أسلمه مسودة كل أشعاره ، واضح يا عزيزى أن الجو غير ملائم .

قال ميرزا أسد الله : أشك فى هذه النقطـة . لأفرض أنكم خلصتم مدينة أو مدينتين أخريين ، لكنكم تعلمون أن العجلة الأصلية تدور ، والحكومة بكل خدمها وحشمها ومخازن سلاحها حيـة وحاضـرة ، ثم ظننتم أنكم أجريتم الماء من الساقية .. مع نظام ملوك الطوائف الذى نحن فى إساره ، ينبغى أولا تعطيل ريشات العجلة .

الموجودة تحت الماء .

قال حسن آقـــا :- إذن لا اعتراض لديك على أصل الموضوع ، لكنك تشك في احتمال نجاحنـــا ، ولا بد أن لك الحق فى أن تخاف .

قال ميـرزا أسد الله : في النهاية أنت تدعونى إلى عمل ليس واضحـــا لي كما وكيفا ، وتريد أيضـــا ألا أفكر فيه بعمق ؟ فلنفترض أنني جبان ، لكن ما الهدف من أمر نجاحـــه مشكوك فيه إلا مذبحة جديدة ؟ وإلى جوار هذا ليس عندى أساس إيمانكم ، وأنت تعلم أفـضل منى أنه من أجل إيمان مـا ، يمكن السـيــــر بعين مغمضـــة .

قال ميرزا عبد الزكي :- يا عزيزى .. في الأصل من أجل ماذا كل هذا التعمق في التفكير ؟ ما الذى تبقى من كل أعمارنا ؟ يا عزيزى ، كلما أفكر أنني سأظل بقية عمرى في نفس هذا الحانوت مع هؤلاء الزبائن وكل هذه الخرق البالية التي تفوح برائحة مقر مغسل الموتى ، أحس بالغـثيـــان . هى فى النهـايــــة يا عـزيزى حـركـة ، هزة ، تغييـــر ، تنويع ..

ضـــاع كلام ميرزا عبد الزكي وسط ضوضـــاء خمسة أو ستة رجال ونساء يحملون رجلا متورمـــا على أكتافهم ويهمون جميعا بدخول مكتب ميرزا عبد الزكى ، وأخذت إمرأة تردد :

– آه يا سيدى العزيز ، الأمان ، انجدنى ، ضاع زوجى من يدى ، آه يا سيدى العزيز ، الأمان

قال رجل :

– كم قلت عندما تنامون ليل اقرأوا ورد شجـــا شجا .[١]

وكان آخر يقـــول : بهدوء يا بني ، فقد كســــرت رجله .

نهض ميرزا عبد الزكى وقد رأى أنهم يخلعون باب مكتبه ، وتقدم وســـأل :

– ما الخبر يا عزيزى ؟ ماذا حدث ؟ هل أصيب بطعنة سيف ؟

قـالت إحدى النســـاء : ثعبـــان ، ثعبان يا سيدى العزيز ، وموضع لدغته أسوأ من طعنة السيف ، فاغرٌ فاه !!

سـأل مـيرزا عـبد الزكى : وأين كنتم يا عـزيزتى منذ الصـبـــاح حتى الآن ؟

قـالت نفس السيدة : يا سيـــدى ، أتوسل إليك ، لقـد جئنا من الطرف الآخر للمدينة وحتى هنا ، كل كتبة الأدعية لملموا فرشهم وذهبوا وأصبحوا دراويش .

قـال مـيرزا عبد الزكي : الخـلاصة يا عزيزتى أنكم الآن أفسـدتم عملي ، وبألف مشـتة كنت قد استحضرت روح والد هـذين الحاضـرين . والآن من أين أحصـــل عليها ثانية يا عزيزتى ؟

---

(١) ورد شجا شجـــا من الأوراد التي تتلى ليلا فى البيوت اعتقادا فى أنها تحمى من لدغ العقارب والثعابين . المترجمة .

قال أحد الرجال : عجبا !! أخى يضيع من يدى وأنت تحمل هم روح والد الآخرين ؟ في النهاية صف لنا دواءً ، وردا ، تعويذة .. إذن لماذا فتحت هذا الدكان ؟

نهض ميرزا أسد الله ، ومد يده نحوهم بجذاذة ورق كان قد كتب عليها شيئـــا ما وقال :

- لا تغضب يا أخي ، هذا السيد ليس في حالة تركيز ، ولقد أصابه حضور الروح بدوار ، خذ هذه التوصيـــة واحمل مريضك إلى حكيمباشى الحى ، عيادته قريبة ، وهو خالى .

وخرج من الحانوت ، ودلهم على عنوان عيادة خان دايى وعاد . وعندما بقوا وحدهم ، تحرك حسن آقا وقال :

- ميرزا ، إننى أفهم أنك من أهل المبادىء ، لكن الخلاصة من أجل من وضعت هذه المبادىء إلا من أجل الإنســـان ؟ صحيح ؟! وأساس العمل عندك قائم على الإيمان أصلا والمبادىء .. وهذا أيضـــا صحيح، لكن ذلك الإيمان الذى يعتبر قتل الإنسان جائزا ليس حقـــا بل باطل . والآن : هل تفهم ماذا يدور في رؤوسنـــا ؟ المحافظة على حياة الإنســـان حتى في مقابل التفريط في الإيمـــان وفي المبادىء . وأنت تعلم أن أساس كل إيمـــان كان هكذا منذ يومه الأول ، مع الفارق بأن الزمان عندما تغير ، فإن الإيمـــان والمبادىء أيضـــا تتبدل وتتغيـــر .

قال ميرزا أسد الله :- إذا كانت المبادىء مبادىء فى الواقع ، فإنه

لا ينبغي أن تتغير بتغير الزمان ، المبدأ هو ما له مبدأية على الدوام ، ولا شك أنني لا أنظرأيضا إلى هذه المذبحة التي تقاومونها، لكنى بنفس معتقداتي القديمة أعرف حفظ المبادىء .

قال ميرزا عبد الزكى : لا أفهم يا عزيزى ، إذن فما وجه الخلاف بينكما ؟

قال ميرزا أسد الله : - في أن كل مذهب ومسلك جديد يوسع في النزاعات الحيدرية النعمتية(١) وتصبح حجة جديدة للتكفير ومن بعدها سفك الدماء وتصفية الحسابات بين خلق الله ، وهذا يناقض المبادىء التي يؤمن بها كلانا ، وأيضا فقد مضى ذلك الزمان الذى كانت فيه المذاهب عاملا أصليا للتغيير .

قال حسن آقا :- إذن تقول بأنه ينبغى فى مواجهة مثل هذه المظالم أن نجلس ونشاهد ونحن مكتوفي الأيدى ؟

قال ميرزا أسد الله : لا أعلم ما الذى ينبغي عمله ، فلا أنا زعيم القوم ، ولا مدعي إمامة ، ولا أنا جئت بمذهب جديد ، وما أعلمه أنني وحدى لا أستطيع القيام بشيء ، وأنكم أيضا تتحمسون بغير داع وأنكم منهمكون في تهيئة الأرضية لإحداث مذبحة جديدة .

قال حسن آقا : ما دمت على ظنك بأنه لا يتأتى من يديك عمل، فلا جدال أننا أيضا متحمسون بلا داع .

---

(١) الحيدرية والنعمتية فرقتان من الفتيان الدراويش ظهرتا في ايران الأولى في القرن السابع الهجرى والثانية في القرن التاسع الهجرى واحتدم بينهما النزاع الذى كان يتطور في بعض الأحيان إلى قتال في الشوارع . المترجمة .

قال ميرزا عبد الزكى : في النهايـــة يا عزيزى ، أنا وأنت لسنا بمفردنا ، هل نسيت كيف صارت مقاومتنا البسيطة قدوة ونموذجا ؟

قال ميرزا أســـد الله : أعلم ، وأعلم أيضـــا أننى لو خُيرت بين هؤلاء وبين الحكومة ، فسوف أختار هؤلاء السادة ، ليس بسبب مذهبهم الجديد ، لكن لشهامتهم ، لكن أمور دولة ليست كأمور قريـــة ، وإذا كنا قد وفقنا فى القرية ، من أين نعلم أننا سنوفق في الدولة ؟ .

قال حسن آقا : وهذا أيضـــا مرتبط بمساعدتك ومساعدة أمثالك ، إذا كانت مساعدة شخصين كافية فى قرية ، ففي المدينة تلزم مساعدة مائتين أوألفين أو من أمثالكمـــا . وأصـــلا لكى أطمئن خاطرك يا ميرزا . بالنسبة لى .. وإلا من أكون أنا ؟ بالنسبة لنا ، ليس مهما أن نكسب أو لا ، لأن الحق ينتصر فى النهايـــة . وابدأ من زردشت وتعال حتى اليوم ، كل الأوليـــاء عاشوا على هذا الأمل وماتوا على هذا الأمل . تعلم بلا جدال حساب الألفيات ؟ على رأس كل ألف يظهر الحق مرة أخرى ، وإلى أن يظهر الولى الجديد ، المهم بالنسبة لنا أن نحتفظ بنواة المقاومة حيـــة ، نواة الأصالة البشرية فى وفيك وفى ذلك الذى لدغته الحية وفى زوجة ميرزا ، أتعلم يا ميرزا ؟ أهل السوق فحسب هم الذين ينبغي عليهم أن يفكروا فى عاقبة الأمور ، وأن يفكروا في الفائدة التي ستعود عليهم ، وأنا وأنت لسنا من أهل السوق .

قال ميرزا عبد الزكى : يا عزيزى ، لست مثلكما أستطيع أن أخوض فى الأمور العقلية ، لكن ما أعلمه أن قبلة العالم لم يفر مع خدمه

وحشمه بلا داع، ومن المؤكد أن ثمة شيء قد حدث ، أن خوفا ما قد حل – يا عـزيزى– مما دعى خـانلرخـان أن يرسل طالبـا مـسـودات شـعـره خشيـــة أن تقع في يد أحــــد ، مثـــل هذه الأحداث لم يشـهدها آباؤنـــا يا عـزيزى . إنهـا تحـدث مـرة كل خـمسـة أو سـتـة أجيـــال وأيضــــا بالعنف إذا حدثت ، وأنا يا عزيزى إن شئت الحقيقة أعترف بأهمية لهذه الأحداث بالنسبة لي ، وبخاصة بالنسبة لعيني التي شاهدت إخلاء بلاط بكل أبهتـــه وعظمتـــه ، فأى واحد من آبائنا رأى مثل هذه الأحداث يا عزيزى ؟

قال ميرزا أســـد الله :– لا تكن عـاطفيــا يا جناب السيد . لأفرض أن هؤلاء الحضرات انتصروا ووصلـــوا إلى الحكم ، في رأيي أنه لم يحدث جديد بشكل جدى ، ذهب خصم وحل محله خصم آخر . تعلمـان أني في الأصل مـعارض لكل حكومـــة . لأن ضرورة كل حكومة العنف ثم القـسـوة ويليـهـا المصـادرة والحبس والنفي . منذ ألفي عـام والناس فـي انتظار حكومـة الفلاسـفــــة التي نسـجـوها من خـيـالهم غافلين عن أن الحكيم لا يستطيع أن يحكم ، أمر بدهي ، بل لا يستطيع أن يدلي برأيــــه ويحكم ببسـاطة . الحكم منذ الأزل هو عمل الرجـال الحمقى وعمل الأراذل الذين تجمعـــوا حول علم مغامر وتحمســـوا لكي يقـومـوا بنفـاقه . عمل اولئك الذين يستطيعـــون وضع ضـمـائرهـم وتصوراتهم في ديوان شعر ، ويحكمون بمعيار الغرائز الحيوانيــــة ، القصاص ، السن بالسن ، التعويض ، العقاب ، سفك الدماء والحكم في حين أن أمور الدنيـــا الأصلية تمر في غياب الحكومة ، وفي حضور

الحكومة تتعرقل أمور الدنيا ، كل مشكلة من مشكلات البشر إن لم تحل عـرفـيـــا ، وتطورت إلى تدخل الحكومـة ، تصـبح أسـاسـا للحـقـد لأجيـــال تالية .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، ألا تعلم على الإطلاق أنك لا تفتأ تتحدث بمنطق العجزة ؟ أولئك الذين لم يجدوا طريقهم قط إلى الحكم ؟

قال ميرزا أســـد الله : إذن كنت تريدنى أن أتحدث بمنطق اولئك الذين وجدوا طريقهم إلى الحكم ؟ التاريخ مليء بمنطقهم ، المقولة الأولى: في القتل ، والمقولة الثانيــة : في القتل ، والمقولة الأخيرة أيضـــا في القتل . لقد رأينا أى نتن صفعوا به العالم بصفحاتهم تلك المذهبة ! أنا لا أقبل هذا المنطق .

قال ميرزا عبد الزكي : واضح يا عزيزى . ومن هنا فكلامك ليست له رائحة ، كلامك في الأصـــل يا عزيزى يفوح برائحـــة اليأس .

قـال مـيـرزا أسـد الله :- أفـضـــل من أن تفـوح منه رائحـــة الابتلاء بحب الدنيـــا ورائحة الدم . وفي الأصـــل ذلك الذى تعتبره عجزا أعتبره أنا شرفـــا لي .

قـال مــيـرزا عـبـد الزكي :- أهو نفس الشـرف الموجـود عند النســـوة العجائز المقعدات ؟ حسنا !! مما لا شك فيه يا عزيزى أنك مـادمت لا تتـحـرك من مكانك ، فـأقل نتـيـجـة لهـذا هو أن تظل شـريفـا مثـــل العجائـــز تماما .

قال ميرزا أسد الله : لا يا جناب السيد ، الشرف والعجز من مقولتين مختلفتين ، فالإنسان العاجز غير قادر على العمل ، أما الشريف فيكون قادرا على العمل لكنه يضبط نفســـه .

قال حسن آقا : حسنا .. وما دخل هذا بعملنـــا ؟

قال ميرزا أسد الله : له دخل بهذا الشكل وهو أن هذا السيد يرى أن إنسانا مثلي عاجز عن المشاركة في الحكم ، فلا بد أن يكون المرء جالينوس العصر أو لديه القدرة على تحريك جبل أحد حتى يكون لائقا بالمشاركة في الحكم ،وخطأه في نفس هذه النقطة، يا سيدى : لكي تطفو فوق سطح الماء ينبغي فقط أن تكون خفيفـــا ، لكن اللؤلؤ يبقى دائمـــا في قاع البحر إلا إذا أرسلت غواصـــا في أثره ، وللمشاركة في الحكومة يكفي أن يكون لديك قليل من الذكاء ، وتفهم في أى اتجاه يكون جذب السلطة ثم تعرف بعد ذلك كيف تغمض عينيك ، لاشك في أوائل العمل ، ثم تصبح عادة ، وحتى عين الضمير المفتوحة لن ترى شيئا أيضـــا ، أما العمل الذى يريده الرجل الحق فهو أن يدير ظهره لهذه المائدة الحافلة .

قال حسن آقا : الخلاصـــة أن أرسطو شارك في فتوحات الإسكندر ، كما تولى نظام الملك الوزارة ، وذهب البيروني تابعا لمحمود إلى الهند ، ولف خليفة بغداد في اللباد بأمر السيد نصير(١) ماذا تقول

---

(١) نظام الملك هو وزير ملكشاه السلجوقي ومؤلف الكتاب المشهور " سياست نامه " وقتل على أيدى الإسماعيلية سنة ٤٨٥ ، ومحمود هو محمود =

في هؤلاء وآلاف آخرين تعرفهم خيرا مني ؟

قال ميرزا أسد الله : كل واحد من هؤلاء الحكماء الذين أحصيتهم مع كل حكمته كان بشرا مثل كل البشر ، ولم يكونوا معصومين . كلهم كانوا مذنبين وتابوا ووضع أرسطو المنطق حتى يقوم خلفاء تلميذه بالإعتذار عنه بفصاحة وبلاغة ، وغسل البيروني يديه بماء كتابه " ما للهند " دماء كل الهنود الذين قتلهم محمود ، وسعى السيد نصير كثيرا ليتطهر عن طريق كتابه في الأخلاق ، ونظام الملك كان في الأصل مثل خانلرخان الماثل بين أيدينا والذى عندما رأى الجو غير ملائم أرسل في طلب مسودة أشعاره . وأعدك أنه إذا عادت الأوضاع إلى سيرتها الأولى وكتب التاريخ نفس اولئك الذين كتبوه حتى الآن ، بعد مائتي سنة ستصبح نفس مسودات خانلرخان هذه ديوان شعر ذائع الصيت ، وربما يكتب بماء الذهب ، كل الذين ذكرتهم في رأيي طفيليون على السلطة ، قراضة ملتصقة تحت ذيل بغل السلطة الجامح . وفضلا عن ذلك فإنها سلطة أرسيت على الظلم ، ليست سلطة الحق . والسلطة الحقة في كلام الشهداء . ولنفس هذا السبب فأنا أنظر إلى التاريخ من وجهة نظر الشهداء ، من كوة عيون المسيح وعلى والحلاج والسهروردى ، لا من وجهة نظر الكتابات المذهبة للحكماء الذين وصلوا إلى الحكم ، أولئك الذين كتبوا أن انوشيروان رجل عادل مع كل

= الغزنوى والبيرونى هو مؤلف تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ، وخليفة بغداد هو المستعصم الذى سقط وأنهيت الخلافة في عهده بعد الغزو المغولي والسيد نصير هو نصير الدين الطوسي روى أنه نصح المغول بعدم قتل الخليفة بطريقة تسيل معها الدماء ومن ثم لف في اللباد وضرب حتى مات " سنة ٦٥٦ هـ " المترجمة

هذا الرصاص المذاب الذى صبه في حلوق أتباع مزدك .

قال حسن آقا : إذن فأنت تبحث عن الإمام المعصـــــوم ؟

قال ميرزا أسد اللـــه : وماذا ينبغي أن نفعل ؟ كل شخص يسعى وراء الشيء الذى لا يملكـــــه .

قال حسن آقا : هكذا يتحدث أولئك الذين ينتظرون إمام الزمان .

قال ميرزا أسد الله :- تعلم يا حسن آقـــا أن العصمة أمر نسبي ، ومن أجل الوصول إليها أو اختيارها ، يوجد الإنسان في كل لحظة في مفترق طريقين : طريق الحق وطريق الباطل . ولا يلزم أن تعاني الإنتظار لسنوات ممتدة ، لكن ذلك الذى ينتظر ظهور إمام الزمان ، على الأقل يعتبر هذا الصنف من الحكومات حكومات ظلمة يعني لايقبلها .

قال حسن آقا : لكنك ترى أن هذا الصنف من الحكومات موجود وقوى وذو مكنة أيضـــا ، مع أنها على حد قولك تستند على سلطة الظلم .

قال ميرزا أسد الله : ولهذا السبب فأنا أنظر إلى الدنيـــا من وجهة نظر الشهداء .

قال حسن آقـــا : ولهذا السبب أيضـــا فإن كل شخص ينتظر إمام الزمان يضع يدا فوق يد ، ولا يتحرك من موضعـــــه في مواجهة أى ظلم . وقلوب كل هذا الصنف من البشـــر سعيدة بكلامك هذا : البقاء على باب انتظار المعصوم بشرف وعصمــــة . ، وترى أنه ينبغي في النهاية أن يحطم طلسم هذه الدائرة والتداوم في موضع ما . ثم :

ألست أنت الذى يقول أنه قد مضى ذلك الزمان الذى كانت فيه المذاهب العامل الأصلي للتغييرلا ؟ وألست تعلم أنه خارج نطاق الأديان تفقد الشهادة معناها ؟

قال ميرزا أسد الله : لا ، لا تفقده ، وأنا أصلا لا أقبل أن الشهادة حكر على نطاق الأديان

قال ميرزا عبد الزكي : أنتما يا عزيزى لا تفتآن تسيران فوق مستوى عقلي . وأنا أصلا يا ميرزا لست أؤمن أيضا بكلام هؤلاء الدراويش ومعتقداتهم ، لكن يا عزيزى عندما تبلغ السكين العظم ويفسد الزمان ، ولا تفوح مجرد رائحة السعادة ، لكل شخص الحق في النهاية يا عزيزى أن يقول : ربما توجد السعادة في هذا الطريق ، ويجوز أننا حتى الآن لم نكن نفهم ، إذن لنمض ونستظل بأجنحتهم ربما تصير الحياة أكثر راحة .

قال ميرزا أسد الله : الحياة بالنسبة لإنسان لا يفكر مريحة تماما ، أكل ونوم وسلوك دواب ، لكن عندما يحل الفكر لا تكون مستريحا حتى وإن كنت موجودا في الجنة .. إذن فلماذا فر آدم أبى البشر من الجنة ؟ ، لأن العقل حل برأسه ، وبدأت تساؤلاته .. ماذا تظنون ثقل الأمانة التى أبت الجبال حملها فحملها الإنسان ؟ ترك آدم حياة الدواب داخل الجنة ، وذهب إلى الدنيا المليئة بتساؤلات العقل والمسئولية ، إلى دنيا البشر المليئة بالهول والرعب .

قال حسن آقا : ألا يكفي كل هذا الكلام الذى قلناه عن آدم أبي

البشر منذ بدء الخليقـــة وحتى الآن ؟ في النهاية لماذا لا نتحدث عن الإنســـــان ضحية العصر ؟ نعلم ماذا فعل الجد الأول للبشر ولماذا فعله، لكن ما هو واجب حفيده هذا العاجز ؟ أن يجلس ويكون مجرد مشاهد لهذه السفالات ؟ إذا كان آدم قد هرب من الجنة فلأنه كان تحت سيطرة غرائزه الحيوانيـة ، ونحن أسرى في جهنم تحت سيطرة الشهوات والسفالات . نفس ذلك الحق الذى تتحدث عنه والمسئولية تحتم على أن أتحرك مثل بقية البشـــر وأعمل وأكون آملا وأقاوم ولا أستسلم للظلم واستشهد ، حتى على الأقل لتنظر إلى الدنيا من وجهة نظرى ، وفي الأصل ما الحاجة إلى شهادتى ؟ ألم يستشهد " النقطة الأولى " ؟

سأل ميرزا عبد الزكي : هل تقصـــد كوتشك جفردان ؟ هو الذى ألقى بنفسه في دن الزئبق يا حسن آقـــا .

قال حسن آقـــا : يا جناب السيـــــد ، لماذا تردد كلام ميزان الشريعة ؟ أى دن زئبق ؟ ألم تسمعهم يقولون إنه عندما يظهر إمام الزمان يظن الناس أنه أتى بدين جديد ؟ هه ؟ حسنـــــا ، لماذا لا يكون تراب محلة الحق هو إمام الزمان ؟

قال ميرزا أسد الله :– ليطمئن خاطرك ، فالأمرسيــــان عندى ، لست ممن ينتظرون إمام الزمان ، وفي رأيي أن كل إنســـــان هو إمام زمانه ، وهذا هو ما يعنيــــه حمل الأمانة .

سأل ميرزا عبد الزكي : إذن في النهاية ستحدثنا – يا عزيزى – عما ينبغي أن نفعل ، أنت معارض للحكومة ، وبهذا الكلام والآراء الجديدة لا تقدم أى عون ، ولست أيضـــا منتظرا لإمام الزمان . إذن

فقد تركت كل مقاومة يا عزيزى . فهل يصح في النهاية أن تضع جسدك في مواجهة السيل ؟ وعلى حد قولك حتى أولئك الذين ينتظرون إمام الزمان وهم يضعون يدا فوق يد يفضلونك يا عزيزى ، إنهم على الأقل حافظوا على المقاومة في صورة انتظار حي .

قال حسن آقا :- انظر يا ميرزا ، الوضع الآن غير عادى ، فلا أحد منا يزاول حياته المعتادة ، لماذا ؟ لأن حادثـــا ما قد وقع ، لأن شيئـــا ما أعلن في وجه الظلم ، هذا الشيء هو أحفاد آدم أبي البشر مضاف إليهم إيمـــان جديد ، وأنت ليس لديك هذا الإيمان ، ليس هذا فحسب ، لكنك تؤمن بمبادئك ، وبناء على مبادئك ومعتقداتك القيمة ، فإن هذا الوضع غير قابل للتحمل ، إذن لماذا تتوقف ؟ ألست ترى أن مصير هذا الإيمان يستطيع حتى شخص واحد أن يرجحه إلى هذا الطرف أو إلى ذاك الطرف ، إلى هذا الوجه من العملة أو إلى الوجه الآخـــــر ؟

قال ميرزا عبد الزكي :- أنا يا عزيزى أريد أن أعرف منك أنت الذى تعتبر كل إنسان إمام زمانه ، ما هو دورك في خلال ذلك ؟ وأية مسئولية تدعيها لنفسك ؟

قال ميرزا أســـد الله : - يا جناب السيد ، لست أنا الذى صنعت هذا الوضع ، كما أن الذى صنعه لم يصنعه وفق هواى ، أنا لا أقبل أصـــلا هذه الدنيـــا بأوضاع البشر فيها ، هكذا ، لا هذا الوجه من العملة ولا وجهها الآخـــر ، ليست دنياى حقيرة إلى هذا الحد بحيث تستقر على وجه عملة أو على ظهرهـــا . ولم تزل دنيـــاى ذات واقع في عالم الخيال ، ومن هنا لا فرق عندى بين السجن والجنة والنار ، وحيثما أكون وفي أية حال ، أكون أنا فحسب ، أعيش بخيالي .

قال ميرزا عبد الزكـــــي : – يا عزيزى ، ها هي رائحة الإحباط تفـوح من كـلامك مـرة ثانيــــة ، أتريد أن تقـول " مثل هـذا القـفص لا يليق بحسن تغريد مثلي " ؟

قال ميرزا أســــد الله :– لو كان من المقرر أن الكلمات العظيمة لا يتحدث بها إلا العظـــــام فحسب ، لما شاع الحق :

سأل حسن آقــــا : لم تقل يا ميرزا إنك سوف تجلس في النهاية وتضع يدا فوق يد وتشاهد حتى تضيف شهيــــدا إلى عداد الشهداء أو أنك ستتحرك وتنضم إلينــــا ؟

قال ميرزا أسد الله :– أنظر يا حسن آقا ، عندما يثور شخص ما، لابد وأن يكون لديه هدف ، تعلق بشيء أو نفور من شيء أو إيمان بشيء مــا، وليس لدى الإيمان الكافي بعــملكم ، ولست أهتم بشيء في هذه الدنيـــــا .

سأل حسن آقا : على الأقل تحس بكراهيـــــة ؟

قال ميرزا أسد الله : أحس بكراهية ، وبشكل سيء ، أنا الكراهية نفسـهـا ، أنا الإعتراض نفسـه على الوضع الراهن ، ولا بد أن أكون الثورة نفسها، لكن ...

قاطعه ميرزا عبد الزكي وقال :– أتذكر يا عزيزى عندما كنا في القريـــــة ، عندما كنت تقول إنك عندما لا تستطيع أن تقوم بأمر مـا فعلى الأقل من الأفضـــــل أن تحفظ كرامتك ؟ أتتذكر أنني قبلت كلامك ؟ حسنـــــا ، إذا قمنا وتأتى من أيدينـــــا أمر ما ، في هذه الحالة بأى شكل يا عزيزى يتـأتى لك أن تحفظ كـرامـتك ؟ هه ؟ بإنكار كل شيء

فحسب ؟ وهل هذا هو حمل الأمانـــــة ؟

ظل ميرزا أسد الله صامتا لفترة وقد طأطأ رأســــه ، ثم رفعها ، وللحظـــة تفحص صديقيـــه اللذين كانا قد جلسا في انتظاره ، ثم هز رأســه وقال :

- وآسفاه ، وآسفاة إن هذا الجســـد لمدين .

سأل حسن آقـــا : حسنـــا ؟

قـال مـيـرزا أســـد الله :- لا شيء . كنت أفكر لو أن هذا الجسـد لم يكن مدينـــا ، مدينا بكل هذه النعم التي يتجرعها دون استحقاق ، كم كان يستريح إذا انتحى جانبا ، وكان متفرجا ، ونسج الخيال أو لجأ إلى الشعر والعرفان ، ولكن - ويا للخسارة - ليس ممكنا مقابلة كل هذه النعمة بالسكـــون . هذا الهواء ، هذه الصداقـــة ، هذا النفَس ، ولدى حميد ، السجادة التي ينسج إطارها ، ينبغي أن تقابل كل نعمة من هذه النعم بالعمل لا بالسكون ، السكون ثم السكون ثم السكون لا يُجازى أى شيء . وأنت يا جناب السيد أهل عمل تمضي وراء المغامرات ، ما أسعدك !! وأنت يا حسن آقا لديك الإيمـــان ، وما أفضل هذا ، لكنى في حاجة تدفعني إلى العمل ، لكي .....

فنهض ميرزا عبد الزكي ، وقبل جبين ميرزا أسد الله ، وظل حسن آقا يقاوم نفســـه حتى لا تتساقط دموعه ، وسمع ميرزا أسد الله يقول :

- حسنا جدا ، حسنـــا جدا يا جناب السيد ، سآتي ، مع العلم بأننا لن نداوى ألما من آلام الزمـــان .

(٨)

المجلس السابع

يا أعزاء القلب ، قام كاتبانا بتعطيل محل عمليهما لمدة أسبوع بعد ذلك اليوم ، وذهبا فى أثر عملهما وكسبهما الجديد . وقام ميرزا عبد الزكي بسد فجوات مكتبه بالكافور ، وأغلقه ، كما وضع على بابه قفلا ضخما ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، كانت إحدى قدميه في تكية الخبازين ، والقدم الأخرى في القلعة . وكان يشرف على أعمال الكتبة التابعين للديوان وغير التابعين للديوان الذين كان قد جمعهم من هنا وهناك ، وأسند لكل منهم عملا ، ومن أجل حفظ حساب الأهوان والمدافع والبنادق والأسلحة الأخرى ، كان ميرزا عبد الزكي قد اختار كتبة من الدراويش أنفسهم ، وأمرهم أن يحفظوا دفاترهم وسجلاتهم بالشفرة ، وأن يكتبوا الأعداد والأرقام كما تقتضي عادتهم بالنقاط والحروف ، حتى لا يفهم غريب سر أعمالهم . وفي الأصل يعتقد بعض رواة الأخبار أن حساب الجمل صار متداولا منذ ذلك الوقت ، وكان ميرزا عبد الزكي نفسه هو الذى أحدث تغييرات في أشكال الحروف ، وأعد دفترا أشبه بكتاب الشفرة ، وعرضه على تراب تركش دوز ، ثم وزعه على المحاسبين . أما ما جرى بشأن حفظ حساب تموين المدينة فقد استعان بأهله وعشيرته وأصدقائه ومعارفه وزملائه القدامي . فأرسل خصيصا إلى كل من عرفهم من كتاب الأدعية وضاربي الرمل ومعزمي الثعابين والمشعوذين في المدينة ، وسلم كل عشرة منهم لكاتب

ديواني يعلمهم أسلوب العمل ودفتر الشفرة وأصول مسك الدفاتر والسجلات ، ويشرف على أعمالهم . حقيقة أن عددا كبيرا من أهل هذه المهنة كانوا قد احترفوا دق الوشم ، وكان لكل منهم يوميا من عشرين إلى ثلاثين زبون ، ولنفس هذا السبب كانوا قد تعللوا لميرزا عبد الزكي بأنهم لا يريدون التدخل في أرزاق أهل المدينة ، لكن الكثيرين منهم كانوا قد خفوا لمساعدة ميرزا عبد الزكي بسبب كساد سوق كتابة الأدعية .

كان عمل ميرزا عبد الزكي من الصباح حتى الظهر هو الإشراف والتفتيش على مخازن المؤن ، ثم من الظهر حتى الغروب مراجعة حساب الأسلحة داخل حجرة من حجرات القلعة الحكومية ، ومن ماله الخاص كان قد اشترى من ميدان المكارية نفس ذلك الحمار الذى كان قد ذهب إلى القرية ممتطيا إياه بسرجه وعدته ، وبدون أن يشغل الدراويش ، كان كلما لزم الأمر يمضي من أقصى المدينة إلى أدناها كأنه الدركي ، ومن هذا المخزن إلى ذلك المخزن ، كان يقوم بكل هذا بحيث يعلم ظهر كل يوم كم يوجد في كل مخزن من الإحتياطي ، وكم وصل إلى المخازن بالأمس من أحمال الحمير من القمح والشعير والبقولات ومن أين أتت ، وكم من أحمال الحمير وزعت على الخبازين أو وزعت بين البقالين والرزازين ، ونفس هذا الترتيب قام به بالنسبة للأسلحة ، وبمساعدة سبعة من الدراويش الكتبة الذين كانوا يجلسون في نفس الحجرة في القلعة، كان لديه كل غروب تفصيلات دقيقة عن كل نوع من الأسلحة. كما كانت زوجته درخشنده هانم مشغولة تماما في نسج السجاد ،

ومن ثم لم يعد لديه لاهو ولا زوجته أى قلق من قبل الموضوعات إياها ، حقيقة أن درخشنده هانم لم تكن قد وصلت بعد من المقدمات إلى المتن ، لكنها بمساعدة زرين تاج هانم كانت قد أقامت حتى ذلك الوقت في دارها ثلاثة أنوال لنسج السجاد وكان لديها خمس عشرة أجير ممن ينسجون السجاد ، كان من بينهم ثلاثة رجال ممن يقرأون التصميم والباقي من بنات الجيران والأصدقاء والمعارف اللآئي كن قد ضقن من القعود في المنزل ، ولم يكن لديهن اعتراض حتى ولولم يأخذن أجرا . وكانت زرين تاج خانم كل صباح بمجرد أن ترسل حميد إلى المكتب ، تأخذ بيد حميدة وتمضي إلى منزل درخشنده هانم ، فتعقد ملاءتها على شال وسطها وتعمل حتى الغروب على قدم وساق ، وكانت " أسطى" العمل بالنسبة لهم جميعا ، وكان العمل قد شغلهما كلتيهما ، كما أصبحت كل منهما موضع سر الأخرى بشكل لا يوصف .

أما ما كان من أمر ميرزا أسد الله ، فبدلا من كتابة الشكاوى للناس ، أصبح عمله من الصباح وحتى الغروب التحقيق في شكاوى الناس . وكان موضع عمله تكية السروجية ، وكان قد سلم مهجع التكية فكنسوه ورشوه وفرشوه بالحصر ، وأتى بنفس فرش مهنته ككاتب للشكاوى ووضعه إلى جوار باب المهجع ، وبمساعدة عشرة من الكتبة الذين كانوا يجلسون متجاورين ولكل منهم فرش مثيل ، كان يقوم بأمور الخلق . وكان هناك عشرون درويشا من المتمنطقين بأحزمة الرصاص عمالا في خدمة جهازه ، كانوا يحجلون دائما في فناء التكية وممرها ، وعند اللزوم كانوا يذهبون لاستدعاء اولئك الذين

كان ينبغي احضارهم إلى ديوان القضـــاء ، حقيقة أن ميرزا أســد الله كان رسميـا كاتب ديوان القضـــاء ، لكن لم يكن هناك رئيس يرأسه كقاض ، كما لم تكن هناك حاجة ليرأس هو آخرين ، كان قد رتب الأمور بحيث تحل جميع الأمور عرفيـا وبالشورى ودون تعسف أو قســوة ، ذلك أنه كـان قد قسم الأعمال ، فكل من كانت له دعوى ملكيـة كان يحيله إلى المساعد الذى بجواره ، وكل من كانت لديه دعوى زواج أو طلاق كان يحيله إلى المساعد الثاني ، وكل من كانت له دعوى عرض كان يحيله إلى المساعد الثالث .. وهلم جرا ... وكان هناك ثلاثة من مساعديه ، وكلهم كانوا من كتبة المدينة المعتبرين ، كانوا في الأصل فقهاء ، فإذا عنت مسألة شرعية ، أو لزم عقد أو طلاق ، كانوا ينهون الأمر في المجلس . وعلى كل حال قليلا ما كانوا يحتاجون إلى إرسال الدراويش المتمنطقين بأحزمة الرصاص في أثر أحد الأشخاص ليحضــروه أو يصدرون حكما بالسجن أو الغرامة .

يقول لكم الراوى يا أعزائى أن الأقدار قد شاءت أن تكون أغلب شكاوى الناس في تلك الأيام من حكومـة الدراويش عن الامـتناع عن النفقة . وبعد هدوء قضية الأهوان ، كان أغلب الشاكين من النساء اللائي هجرهن أزواجهن وتزيوا بزى الدراويش ، واستودعوا الله زوجاتهم وأطفالهم . ومنذ الأيام الأولى لشغل ميرزا أسد الله الجديد ، كانت أربعون امرأة يوميا متفاوتات في العمر ، من سن العشرين إلى سن الستين قد تقاطرن على تكية السروجيـة وملأ لغطهن وصياحهن وصراخهن كل مهجع التكيـة . وصرخ فيهم ميرزا الذى كان قد أرتج

عليه بشدة :

– هـــه ، كل هذه الجلبة لا طائل من ورائـهـــا . أخبرن كبراكن أن تأتى وتجلس وتقدم شكواها مثـــل البشر .

وبينما ساد الصمت الجميع ، إذ تقدمت من بينهن امرأة طويلة نحيلة ، ودلفت إلى المهجع ، وجلست أمام ميرزا وقالت :

– زوجي معدوم الحميــــة هو مشهدى رمضــــان العلاف ، أصابه الله بالجنون . عديم الحمية هجر عائلة من سبعة أشخاص وذهب ، ولا أعلم هل كان هؤلاء الدراويش ينقصهم حانوتي ؟

قال ميـرزا أســـد الله : حسنــــا ، ماذا تقـولين الآن يا أخت ؟ ماذا تريدين ؟

قالت زوجة مشهدى رمضـــــان :– الأمر واضح تماما يا ميرزا ، إما أن يأتى معدومو الحمية هؤلاء – أعمى الله عيونهم– ويزاولوا حياتهم ، او فاسمحوا لنا أيضـــا أن نأتى ونصبح درويشات ، لكي نثبت أننا لا ننقص شيئا عن هؤلاء الرجال فاقدى الغيرة .

ورأى ميرزا أسد الله أنه لايمكن أن يقول شيئا على الإطلاق جوابا على هذا الكلام ، وبمشورة زملائـــه طلب من النسوة يوما مهلة وأخلى التكية ، وحتى ظهر ذلك اليوم كتبوا لائحة جماعيـــة ، وأعطوها لحسن آقـا ليعرضها على تراب تركش دوز ، ولم يكن الغروب قد حل بعد حتى نادوا بها كقانون جديد على كل الدراويش أهالي المدينة أن " مسلك

الدراويش هو ترك الشهوات أما ترك رعاية الأسرة فليس من مروءة مسلك الدراويش" وفي صباح اليوم التالي عندما جاء ت نفس النسوة ، أرسل فأحضر أزواجهن واحدا واحدا ، وأخذ تعهدا على كل منهم بأن يذهب على الأقل مرة في الأسبوع إلى أهله وعياله ، والحقيقة أن هذه المشكلة قد استغرقت أسبوعا ، وأدت في النهاية إلى اعتراض الرجال ، واعترض أحدهم على ميرزا في النهاية قائلا :

- إذا كان مسلك الدراويش لا يحتوى حتى على هذه الميزة ، فما فائدته ؟

لكن أحدا لم يعره اهتماما ، وأمر ميرزا أسد الله بأن يحققوا بحيث أن كل واحد منهم لا يستطيع أن يدبر نفقات منزله وإعاشته ، يحدد لهم جعل الدراويش ، وانتهى الأمر بخير وسلام .

وكان من حسن حظ ميرزا أنه لم يعد هناك خبر عن الشكاوى القديمة التي كان ميرزا يقضي وقته في كتابتها من الصباح إلى المساء، فلا كانوا يأخذون حصان أحد أو بغلــه للسخرة ، ولا كان هناك حرس وشرطة يطمعون في مال أحد ، كما لم يعد هناك خوف من ميزان الشريعة ، ولا جدال أنه كان هناك سرقة وفسق لأنه إذا كنتم تذكرون في اليوم الأول لحكومة الدراويش ، حطم الناس أبواب السجن ، وتركوا كل السجناء يتخذون طريقهم إلى المدينة . وأحيانا كانت تحدث أيضا عربدة وبلطجة ، وفجأة يخلو سوق ما ، ذلك أنه منذ تبوأ الدراويش السلطة ، أُهمل منع السكر وتحريمه ، وفتحت الحانات والغرز في المدينة ،

وانخفضت أسعار الحشيش ، لكن ميرزا أسد الله كان يعرف كيف يتصرف جيدا[1] ، فكل من كان يسرق كان يسترد منه ما سرقه أو يأخذ عوضا عنه ، وإذا لم يؤده ، كان يوسم بخال ضخم فوق جبينه ويخرج من المدينة ، وكل من هتك عرض أنثى ، كان يعقد عليها في نفس الجلسة ، وإن كان ثم شخص ثالث مشتركا في الموضوع ، كانوا يخيرون المرأة في أى من الرجلين ، ويأخذون الغرامة من الآخر ، وعلى هذا النحو .. لكن مشكلة جديدة كانت قد ظهرت في المدينة ، كان الدراويش قد طلبوا من ميرزا أن يعالجها . وكانت المشكلة تتصل بنظافة المدينة وما يتعلق بأمور الدفن عند الأهالي ، ذلك أنه منذ أن فر كبير الحجاب مع جيش الحكومة من المدينة ، فإن مقاولة نظافة المدينة وأمور محل غسل الموتى قد ظلا شاغرين ، وعلت القذارة أبواب المدينة وجدرانها لمدة عشرين يوما ، ولكن لما كان الجو آخذا في البرودة ، لم تكن المشكلة بادية للعيان ، ثم إن ميرزا أسد الله أرسل في استدعاء حسين عازف الكمان الذى كان قد حضر مجلسه فيما مضى من الزمن واستمتع بألحانه ، وبرجاء وإلحاح وضمان شخصي منه أوكل إليه هذين العملين ، وبالرغم من كبير الحجاب كان قد قاول قبلة العالم على هذا العمل الثانوى مقابل ألفي قطعة ذهبية كل عام ، فإن حسين عازف الكمان تعهد بأن يدفع شهريا ألفي قطعة ذهبية لخزانة الدراويش ، فقد كان بيع قمامة المدينة يدر دخلا ، وكذلك ملابس الأموات وزينتهم وحليهم.

---

(١) حرفيا : أين ينيم البعير . المترجمة .

ولهذا السبب فإن تراب تركش دوز أرسل شهادة تقدير إلى ميرزا أسد الله ، لأنه في الحقيقة منذ أن قطعت يد حسين عازف الكمان بأمر من ميزان الشريعة حاكم الشرع حتى لا يعزف ثانيـــــة - وكان هذا منذ خمس سنوات - كان حسين عازف الكمان قد صار بلطجيا رهيبا ، وكان العالم بما فيه من بشر في هول من يده الباقية ، وكان من أولئك الزعماء الذين يجعلون المدينة بأجمعها تضطرب في مصادمات الحيدرية والنعمتية[1] ، وكان يقضي أغلب الأوقات في السجن ، وكان من اللازم أن يسيطر عليه الدراويش بشكل ما ، إذ أنه منذ ذلك اليوم الذى تقاطر فيه الناس على السجن وهدموه ، وتحرر حسين عازف الكمان مثل الآخرين، وحتى ذلك اليوم الذى خطرت فيه هذه الفكرة في رأس ميرزا أسد الله ليشغله بهذا العمل ، كان قد شهر مديته خمس أو ست مرات ، وأصبح باعثا على المتاعب بشكل سيء ، وما إن انتهت هذه المشكلة بخير وسلام، حتى لم تكن هناك متاعب جديدة . وعلى هذا النحو في آخر الشهر الأول لحكومة الدراويش ، كان هناك في السجن ثلاثة أشخاص فحسب من أهل المدينة ، إثنان من القتلة ومحتكـــــر ، لم يكن يجوز الإفراج عنهم ، كما لم يكن ميرزا مستعدا للحكم عليهم بالإعدام .

أما ما كان من أمر حسن آقا ، فقد كان قد اختار سبعين من فدائيي الدراويش ، كانوا دائما فوق سروج خيولهم ، ينتقلون من هذه القرية إلى تلك القرية ، يشترون المؤن ، ويعدون البقر والخراف ،

---

(١) الحيدرية والنعمية فرقتان متشاحنتان فى مدن ايران منذ القرن السابع وصارت مثلا على النزاع المحتدم الذى يؤدى إلى الفوضى .

ويحملونها على الإبل أو على عربات ضخمة من صنع الدراويش ويوصلونها إلى المدينة ويحولونها إلى المخازن أو إلى المسلخ . وكان حسن آقا قد جعل كل واحد من أخويه مسئولا عن جهة ما ، فأرسل الأخ الأصغر إلى الأملاك السابقة لأبيه ، وبمساعدة أهالي تلك القرى الذين كان كل منهم قد أصبح مؤيدا متطرفا لأهل الحق ، كانوا يشترون في نطاق عشرة فراسخ من المنطقة كل مؤن وأغنام إضافية يجدونها ويرسلونها إلى المدينة ، أما الأخ الأكبر فقد أرسله إلى القرى الموجودة في طريق جيش الحكومة ، وكان من أحسن ما فعله حسن آقا أنه إلى أربعين فرسخ حول المدينة ، كل قرية كانت في إقطاع أحد رجال الحكومة الذين فروا ، أودعها أمانة لدى كبار القرية حتى عودة المالك الأصلي ، وبدلا من الثلاثة أو الأربعة أنصبة حق المالك ، كان يأخذ نصف هذه الأنصبة أغناما ومؤنا ، وهذا ما كان يرجوه أهل القرى من الله ، ومن أجل أن يخرس كل لسان استصدر فتوى طويلة من ميزان الشريعة فحواها " .. أما بعد فإن عوائد كل ما كان قبلة العالم قد أقطعه لأحد ، يمكن في غياب ذلك الشخص أن تنفق على المنفعة العامة . " ونودي بهذه الفتوى في المدينة وفي كل القرى المحيطة ، وأبلغوها إلى مسامع الجميع . ولا جدال أنه من أجل استصدار مثل هذه الفتوى ، كان من اللازم التغاضي عن أملاك ميزان الشريعة نفسه ، وعن كل الأوقاف التي كانت نظارتها في يده ، وهذا ما فعله حسن آقا . وعلى هذا النسق كان أن انتشرت أخبار أعمال الدراويش بالتدريج في جزء كبير من المملكة ، وقام عدد كبير من القرى بطرد الملاك ، وفي كل يوم ، كانت تأتي أخبار جديدة من ركن من المملكة ما من شأنها علو أمر الدراويش .

يا أعـزاء القلب ، كـان من رجـال قـصـتنا أيضـــا مـشـهـدى رمضـــان العلاف والذى رأينا كيف أتت زوجته شاكيـــة منه . ذلك أنه منذ إشعال النار في سوق العلافين ، لم يذهب ليعتصم فحسب ، بل دخل مـباشـرة في كسوة الدراويش ، وسلم ظهر يده ، فوسموا عليه صورة الطبرزين ، وصار مسئولا عن امدادات الفحم والحطب للأكوار الجديدة والتى أقيمت حديثا في القلعـــة ، والتي كان الدراويش يذيبون فيها الأهوان ، ثم يصبون المدافع في قوالب كبيرة مصنوعة من الرمل والأسمنت . وكان الحكيمباشي أيضـــا من شخصيات قصتنا والذى بالرغم من أن وضع حـياته لم يكن قـد اخـتلف قط ، وكـانت لديه نفس عيادته القديمة ، يستقبل فيها كالعادة كل يوم ثلاثين أو أربعين مريضـــا يفحصـهم ويكتب لهم الوصفات ، وكان يذهب كل أسبوع إلى القلعة الحكومية لفحص كل امرأة من حريم السلطان تكون مريضة ويكتب لها الوصفـــة ، ذلك أنه من بداية الأمر وبواسطة ميرزا عبد الزكي ، أرسل خانلرخان إلى خان دايي وطلب منه أن يتعهد بهذا الأمر في غياب حكيمباشي البلاط الذى كان قد ذهب مع الجيش فقبل . وأخذت أحوال المدينة تمضي على هذا النحو ، وكان الدراويش يعدون أنفسهـــم -دون ضجيج- للقاء جيش الحكومة ويتجهزون ويتجهزون ، وحتى نهاية الشهـــر الثاني لحكومتهم ، كان لديهم ثلاثون مدفعا بعيدة المدى ، وثلاثـــة آلاف وخمسمائـــة بندقيـــة ومن السهام والأقواس والحراب والسيوف ما لايحصى . وفي نفس تلك الأيام كان أن وصل خبر عن الجيش الحكومي أنه نزل في إحدى المدن الدافئة على الحدود ، وأن قبلة

العالم أعلن نفس المدينة عاصمة للممالك المحروسة ، وسك عملة جديدة ، وعين إمام جمعة للمدينة ، وأنه لا يفكر في العودة في القريب العاجل .

صادف الشهر الثالث لحكومة الدراويش شهر القوس وقد ترك برودة الشتاء خلف ظهره ، وما إن بدأ أهل المدينة في الحركة حتى تساقط البَرَد بشدة ثلاث مرات ، وسلبت العاصفة الثلجية والجليد المدينة الحركة ، فلا شيء قط ، كما أغلقت الطرق ، ولم يعد هناك خبر يصل عن جيش الحكومة ، ولا مؤن تصل إلى المدينة ، حقيقة أن خيال المؤيد والمعارض قد حُد ، فلا خبر سيصل عن جيش الحكومة في الأوقات الحالية ، ولا بد أن هذا سوف يخمد فتن عملاء الحكومة السريين وتحريضهم ، لكن تماما في آخر الشهر الثالث ، كان أن سرت شائعة ظهر أحد الأيام أن عشر مدافع من مدافع الدراويش قد انفجرت ، وأن ثلاثين درويشا قد مزقوا شر ممزق ، وخمسين منهم جرحوا جروحا بالغة ، والحقيقة أن مدفعين فقط كانا قد انفجرا ، وثلاثة فحسب من الدراويش قد قتلوا .

يقول لكم الراوى يا أحباب أنه كان من عادة الدراويش كلما صنعوا مدفعا أن يضعوه على عربة يشدوها إلى بغلين قويين ، ويطوفون به في أزقة المدينة وأسواقها بالمزامير والأبواق والطبول ، ويجربونها إلى جوار الحفرة الكبيرة للمكارية الموجودة في الناحية الأخرى من الخندق . وكان هذا فى حد ذاته مجال مشاهدة عند أهل المدينة وبخاصة

الأطفـال الذين لم تكن لهم من تسليـة أخـرى إلا اللعب بالغـاب ونطة الانجليز ، فكان النسـاء والرجال والأطفال يسيرون خلف قافلة المدفعجية وهم يصفقون ويهللون ويغنون:

لأكن فداءً يا الله   لمدافع الدراويش

مدافع الدراويش   خربت بيت الملك

ويوم أن حـدث ذلك الحـادث ، كـان مـا حـدث أن الدراويش حـملوا خمســة مـدافع لاختبارها ، وكالعادة بينما كان الأطفال يهللون ، كان المدفعجية قد حشوا فوهات المدافع بالبارود ، وأشعلوا الفتيلة ، لكن ما إن تحـركوا ليبتعدوا ، حتى ارتفع صوت انفجار مـهول ، وارتفع التراب والغبـار في الجـو ، وقـبل أن يفـيق الناس ليـفـهـمـوا مـاذا حـدث ، كـان الدراويش المتمنطقون بأحزمة الرصـاص قد انهـمروا عليـهم ، وفرقوهـم ضربـا بالسياط ، لكن صراخ الطوبجيــة الذين جرحوا كـان يصــل إلى بوابة المدينة ، والمتفرجون الذين تقاطروا داخل المدينة قالوا لأول من قابلوه :

–ألاتدرى ما حدث ؟ رأيت بعيني رأسي أن عشرة منهم قد مزقوا

– ألا تدرى ؟ ألا تدرى ؟ كل مدفع تحطم إلى مائة قطعــة .

– نعم المدافع الخمســة انفجرت ، وكل قطعة منها قتلت ثلاثــة .

– يا زكي .. انظر بماذا كنا نسعد قلوبنـــا .

– لكن .. يا له من صوت عجـيب ، لا رأيت يوم سـوء ، لا تدرى كم من الدم قد سال .

- كانت يد أحدهم تحلق في الهواء وكأنها الطائـــــر .

وعندما شاع الخبر صار ملكا للجميـــع ، ولما كان لكل منهم حق فيه ، فقد تصرف فيه بالزيادة والنقصـــــان .. ومن هذا الفم إلى هذه الأذن ، ومن تلك المرأة إلى ذلك الرجل . على كل حال ، عندما انتشر خبر انفجار المدافع في المدينة ، اجتاح الرعب الناس ، حتى ذلك الوقت كانت قلوبهم راضيـــة بالرخاء ورخص الأسعار وبالقضـــاء على مضايقات العسس والمخفر والدرك والحرس ، ثم إن كل جماعة منهم كانت ترى المدافع كل يوم ، وكانت قلوبهم قوية ، وبنفس النسبة التي كانوا يحسون بها أن أهوانهم في أجساد المدافع ، كانوا يحسون بأنهم ملاكها بشكل ما ، بنفس النسبة كانوا يحسون بأنهم أصحابها ، وبنفس نسبة إحساسهم بأنهم ملاكها ، كانت قلوبهم تقوى ويحســـون بجرأة أكثر ، تماما مثلما يحس بالجرأة أكثر كل من امتلك في كيسه على عملة ذهبية أكثر ... لكن الآن وقد افتضحت المدافع فجأة ، وأصبح لكل إنســـان الحق في الشك في المدافع التي اجتازت التجربة سليمة.. ولم يكن هناك بد من أن يفكر كل إنســـان : أنه إذا عاد جيش الحكومة ، ألا تكون مصيبة أن يعتبروه مقصرا ويربطوه إلى مؤخـــرة حماره ؟ وكان أن عاد الناس إلى صمتهم ، وغرقوا في تفكيرهم ، وفقدوا شهيتهم . قال عدد منهم أن الأمر بسبب البرد ، وقالت جماعة أخرى أن سحرا وشعوذة تدخلا في الأمر ، وقالت جماعة ثالثة أن عملاء الحكومة السريين قد تسللوا إلى داخل جهاز الدراويش .. لكن واقع الأمر أن صناع السـلاح لم يدعموا الأهوان الخفيفة لتكون أكثر ثقلا ، ولم يحددوا

عيار النحاس الموجود في كل منها ، وذوبوها معا ، وكانوا يتسرعون في صب المدافع منها .

على كل ، كانت أول نتيجة للخوف والرعب الذى اجتاح أهل المدينة أن ازدحمت أبواب الخبازين من غداة ذلك اليوم ، تماما كزمن القحط ، كان القائمون على الموازين الذين كانوا حتى اليوم السابق يعطون زبائنهم بشق الأنفس مع كل خمسة أرغفة رغيفا بائتا لايجدون الآن فرصة لحك ظهورهم ، أما الوزن والخبز غير الناضج الذى يباع بالعدد وبلا وزن ، فلا خبر عنهما ، وكان الفرانون يقرصون الخبز ويدفعون به إلى الفرن ولما يختمر بعد ، ثم يخرجونه ولما ينضج أو "يتقمر" بعد ويعطونه للناس الذين كانوا قد وقفوا متكأكين على أبواب الدكاكين ويتاقزون على رؤوس بعضهم البعض وأكتافهم .. ونفس هذه الفوضى والضجة كانت على أبواب دكاكين البقالين والعلافين والرزازين ، وبعد يومين من انفجار المدافع ، لم يعد عند بقال أو علاف حبة بقل أو مؤن .. ولا جدال أنه بعد أسبوع همد حرص الناس وهوسهم ، وخلت المخابز مرة أخرى ، وأخذ البقالون بضائع جديدة من مخازن المدينة ، وبقي الخبز على أنجاد الخبازين ، وبات ، لكن قلق الناس ظل قائما.. ووجد عملاء الحكومة موضع قدم.. فكان أن حدث عصر ذات يوم ثلجي أن خرجت جماعة من خمسمائة امرأة من حي "دركوشك" أغلبهن من نسوة الجنود والحرس الذين كانوا قد غادروا المدينة مع الجيش ، وسرن والمصاحف على رؤوسهن ، وجئن إلى القلعة ، لكي يقسم الدراويش على المحافظة على أرواح نساء الحرم وأعراضهن ، ولم يكن

يمكن ابلاغ الخبر إلى تراب تركش دوز ، لأنه منذ انفجار المدافع كان قد اعتكف في خلوة أربعينيـــة ، ولم يكن يستطيـــع الدخول عليه سوى شـخص أو شـخـصين من المقـربين مـوضـــع الأسـرار . واضطر الدراويش إلى التوسل بالسيد ميرزا عبد الزكي الذى كان يحجل في القلعة عصــرا، وذهب ميرزا بدوره إلى خانلرخان ، وبالتوسل والرجاء أخرجه من الحرم ، فقضى ساعة كاملـــة يخطب فيهن ، وفي النهاية تقـرر أن تلتـقي نسـوة المدينة مـع قـريبـاتهن الموجـودات في الحـرم يوم الإثنين من كل أسـبوع ، وهدأت الضجـــة ، لكن أى هدوء.. ففي نفس اليوم دهس ثلاثة من الأطفال الرضع تحت الأيدى والأقدام ، وفي اليوم التالي طلق عشرون رجل زوجاتهم طلاقا بائنـــا . ولم يكد ميرزا أسد الله ومساعدوه يخلصـــان من شر هذا الطلاق والرد ، حتى حدث ذات صـبـاح غـائم أن تقـاطرعلى تكيـة السـروجيـة مائتـا شـخـص من طلاب المدارس بعمـائم ذات أهداب وصدور مفتوحة هاتفين : وامصيبتـــاه ..واعلمـاه ، يا إلـهي !! ترى مـاذا حدث ثانيـــة ؟ وأسكتـهم الدراويش بمشقة ، واختـاروا من بينهم خمسة من الكبار والزعماء ، واصطحبوهم إلى المهجع ، وصرخ أكبرهم سنـــا- وكان معمما بعمامة سوداء وذا لحية بيضـــاء - ولما يجلس بعد :

- لا يمكن الكلام مع هؤلاء الزنادقــــة .. سـيدى العزيز ، لكن أنتم وكل منكم قـد أكل خـبـز العلم عـمـرا ، لابد وأنكم تعلمـون مـعنى "فسيعلم الذين ظلموا " .

ونظر ميرزا أسد الله إلى زملائه الذين كانوا جميعا قد طأطأوا برؤوسهم إلى الأرض ، وقال وكأن لم يحدث شي :

– المعنى الظاهر للآية يمكن معرفته بشيء من الصرف والنحو ، وليس التفسير من عملي ، لكن إذا كنت تهدد ، فلست الشخص المقصود .

ثم قال أحد زملاء ميرزا أسد الله وقد وجد الجرأة :

–في هذا المجلس ، لم تحدث حتى الآن خيانة بالنسبة لأرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم .

ثم تدخل أحد الطلاب قائلا :

– ما الفائدة ؟ من الذى سيسمعنا ؟

فقال ميرزا أسد الله : إن كان ثم دعوى شرعية أو عرفية ، فنحن جميعا مستعدون للخدمة .

فقال نفس الشيخ الذى تحدث أولا : سيدى العزيز ، لقد قطعوا كراية طلاب المدارس منذ أسبوع ، رجعنا إلى ناظر الوقف فقال : لقد خُلعت ، وهؤلاء الحضرات بدورهم لا خبر عندهم عن كلمة الحق .. سيدى العزيز أنت وأنت حافظ بيضة الإسلام ، وقد جلست في مكان حاكم الشرع ، ينبغي أن تخبرنا ماذا علينا أن نفعل .. إنهم في سبيلهم إلى إضعاف حوزة الإسلام !!

إلتفت ميرزا أسد الله إلى واحد من زملائه الثلاثة ، وكان في زى الطلاب وسأله :

– أتعلم من هو ناظر أوقاف المدارس العلمية ؟

– ميزان الشريعـــــة . !!

خرج هذا الإسم في وقت واحد من ثلاثة أفواه ، فهز ميرزا أسد الله رأســـه وقال :

– ومتى خُلــــع ؟ وكيف ؟ مبلغ علمي أنه لم يُعزل .

قال أحد الطلاب :

– على كل حـال ، أنتم تعلمون هذا أفضـــــل منا يا ميرزا ، وما نعلمه نحن أن كراية الطلاب قد قطعت .

فكر ميرزا أسد الله قليلا ثم قال :

– أنا لا أظن ان الأمر هكذا ، ينبغي أن أحقق في الأمر ، وحتى يصـــــل التحقيق إلى نتيجة ، أتعهد أن تصل إلى الطلاب كرايتهم من خزانة القلعة .

فقال أحد الطلاب : إذا وجدت الخزانة ، فهى حتما مغتصبة ، حتما أخذها اولئك الحضرات بالعدوان .

فقال زميل آخر من زملاء ميرزا أسد الله مجيبا :

ـ أنتم وكل منكم أخذ في أكل خبز الإسلام أربعين أو خمسين سنة ، لابد وأنكم تعرفون كيف تجعلون المال المغتصب حلالا .. وإذن هل هو أسوأ من أكل الميتـــة ؟

وقال زميل آخر من زملاء ميرزا أسد الله لم يكن في لباس الملات :

– حقيقـــة ؟ إلى متى تريدون أن تظلوا طلبـــة ؟ ما شاء الله كل منكم في منزلة أبينا ، لماذا لا تذهبـــون وتساعدون الناس ؟

وقال ميرزا أسد الله :

– هل تؤمنون في الواقع بأن ما في حوزة هؤلاء الحضرات موضع ريبة أكثر من الأموال التى كانت في حوزة الحكومة ؟ طوال هذه الفترة لم يُؤخذ مليم من أحد غصبـــا ، ولم تذهب دابة إلى السخرة .

فقال ذلك الشيخ الذى تحدث أولا وبصوت مرتعش :

– حسنا جدا يا سيدى العزيز ، قبلنا ، لكن القضية الأساسيـــة هنا ، أنه مع هذه التكايا وألاعيب الدراويش والمحافل السرية ، لنا الآن أربعة شـهـور لم تصل إلى آذان الناس خلالها كلمة حق من فـوق منبـــر، إنهم لا يتركون الناس يستمعون إلينـــا .

وواصـــل أحد الطلاب قائلا :

– كل المساجد صارت خرابات ، وكل المنابر خلت .. بماذا تردون على النبي غدا ؟

قال ميرزا أسد الله :

– وهذا أيضـــا ليس من شغلنا ، ثم ما دمتم قد قنعتم بركن من المدرســـة ، ما انتظاركم أن يأتى الناس ليستمعـــوا إليكم ؟ ما نعلمه أن الكلام الحق ، لا يلزم أن يقال بالطبل والزمر ...

فقاطع أحد الطلاب ميرزا قائلا :

– لا جدال . خاصة في الوقت الذى تكون فيه كل الطبول والمزامير تحت سيطرة عمال الشيطـــــان .!!

فقال زميل ميرزا أسد الله الذى كان في زى الملات :

– لنر . هل يعني هذا أننا هنا عمال الشيطـــــان .

– بل أســـــوأ ، أنتم عمال للشيطـــان بلا أجر ولا منـــــة . !!

ولم يُعرف من قال هذا من الطلاب ، وبسماعه ، ارتفعت أصوات زملاء ميرزا أسد الله ، واعترضوا جميعا وقد تصاعدت الدماء إلى وجوههم ، وبمجرد أن رأى ممثلو الطلاب أن الجو غير مساعد ، قنعوا بما حصلوا عليــــه ، ونهضــــوا ، وأخذوا بقية الجماعة الموجودة في التكية معهم .

وهكذا يا أحباء ، كان وضع المدينة يجرى بهذه الأمور ، وكان عملاء الحكومة السريون يختلقـــون كل يوم متاعب جديدة ، والناس بدورهم كانوا قد يئســـوا تماما منذ انفجار المدافع ، وعند سماعهم لخبر واحد عن هذه المتاعب ، التي كانت عندما تصل إلى مسامع أحد يصبح الغراب فيها أربعين غرابا ،كانوا يزدادون خوفـــا . وعلى كل حال بينما كانت أربعينيـــة الشتاء الكبرى[١] في سبيلها إلى النهايـــة ، وفي آخر الشهر الرابع لحكومة الدراويش ، وكان يوم

---

(١) الأربعون يوما الأولى من فصل الشتاء في التقويم الإيراني . المترجمة .

جمعة ، دعا حسن آقـــا بن حاجي ممرضـــا كاتبينا مع أسرتيهما إلى إلى الغـداء في نفس ذلك المنزل الذى كـان قريبا من سـويقـة العـلافين ، وكنا مـرة قد أخذنا مـيرزا أسـد الله إلى بابه المغلق لتشمم الأخـبار ثم أعدناه . ولم يظهر كاتبانا -اللذان لم يعودا بعد يعرفان جمعة من سبت ، وكـان دائما مـشغولين بالعمل- بهذه السرعة ، لكن درخـشنده هـانم وزرين تاج هانم وصلتـــا عند الظهر ومعهما حميدة وحميـــد .

كان منزلا واسعـــا ، وكان بابه مفتوحـــا ، وعبروا الممر الذى كـان يفضي إلى حظيـرة ، ومن بعـده كـان هناك فناء خـارجي ـ لم يكن للنسوة دخل به ، وذهبوا إلى الحرم الذى كان قد بني فيه حديثا دورة مـياه منفصلة وحـمام منفصل بل ومكان مـخـصص للرياضـــة . كـان النسـوة يخـرجن من كل حـجـرة ويدخلن ، وترك الأطفـال المتقـاربون في السن كرات الثلج ، ووقفوا يشاهدون القادمين حديثا . كـان الضـيوف يتقدمون ببطء ، ولا يعلمون أى حجرة يدخلون ، قالت درخشنده هـانم :

– ما شاء الله يا أختى .. مـاذا يفعل كل هؤلاء النساء والأطفال في هذا المنزل ؟

قالت زرين تاج هـانم التى كانت تسير كتـفا بكتف مع درخـشنده هانم :

– ومـاذا رأيت منها يا أختى ؟ لم يكن منـزل الحاج ممرضـا منزلا ، كان تكيـة ، يسع من البشر ما يسعه خـان ، كل أصناف البـشر كانوا يدخلـــونه ، ويقيمون أسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر .

ونفضحـــــه ، في النهاية ينبغي أن نمسك أنفسنا عن العنف لكن إلى حدود ...

قال ميرزا أسد الله : تظنون أن هذه التهديدات تؤثر فيه ؟ إن شبه الإنسان هذا سوف يوزع كل مخازنه على التجار من شركائه في الاحتكار .

قال حسن آقـا : لا فائدة في هذا ، فأكثر الحمالين فى المدينة من أهل الحق ، وسوف نعلم بهذا على الفور .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى أنا أصـــلا لا أفهم من أجل ماذا كل هذا الكلام والنقاش ؟ إذا كان من أجل تقدير مؤن المدينة ، فكل المخازن الآن ممتلئة ، والشائعة انطلقت بين الناس أصلا بلا داع ، وفي النهاية فإنه في نفس الوقت الذى غادر فيه جيش الحكومة المدينة ، فإن أهل الحق هم الذين أمسكوا بزمامهـــا .

قال ميرزا أسد اللـــه : انظر يا جناب السيد ، لا يمكن أن يترك أمر تموين المدينة للحدس والتخمين .

قال حسن آقا : على كل حال ، أتوسل إليك يا سيد ، فليست لدى الجرأة على أن أتحدث مع الزعيم الأوحد عن هذه القضية ، فمنذ انفجار المدافع ، وقد اعتكف في خلوة أربعينية ولا يسمح لأحد بالدخول عليـــه .

قال ميرزا أسد الله:– هذا هو ما لم يحدث ، فأى ألم عالجه الاعتكاف في خلوة أربعينية ؟ ينبغي أن نرسل في استدعاء أربعة من

النحاسين الخبراء ونرى أس الخراب ، أنظر إلى المملكة ، كلها من أولها إلى آخرها كلها في خلوة أربعينيـــة ورؤية الطالع ، أنتم والذين كانوا في هذا سواء ، كيف يكون الأمر ياجناب السيد أن تعتكف أنت أيضـــا في خلوة أربعينية من أجل توفير تموين المدينة .. هـه ؟

قال حسن آقـــا : دعك من المزاح يا ميرزا ، فلا صبر لدى .

قال ميرزا أسد الله : أنا لا أمزح يا حسن آقـــا ، أريد أن تفهم ألا فرق هناك بينكم وبينهم

قـال حسن آقـــا : كـيف لا فـرق هناك ، أنت تنظر إلى الأمـور دائما نظرة تشاؤميـــة .

قال ميرزا أسد الله : هـم أيضـــا حسبوا الطالع ، واعتكفوا في أربعينية ، واستخاروا المراصد ، وأنتم أيضا تعتكفون في عزلة أربعينية .. هم أخلوا الميدان وذهبـوا وقـبـعـوا الآن منتظرين حـتى تتـغـيـر الأمـور تلقائيـــا وفق هواهم ويعودون ، وأنتم أيضا قبعتم وانتظرتم حتى غادر جيش الحكومة المدينة ، وآنذاك ظهرتم ، وأنتم الآن قد جلستم منتظرين حـتى يأتي سفـراء أهل السنة ، ويعـقـدون مـعكم الصـفـقـات بدلا من الحكومـة ، ولم يحـدث أن وقف أحـد في قلب الأحـداث مـواجـهـا إياها ، حتى أنتم – مع كل هذا الإدعاء الذى لديكم .. انتهازيون ...

قال ميرزا عبد الزكي : إذن – يا عزيزى – ما الذى ينبغي فعله في رأيك ؟

قال ميرزا أسد الله ضائقـا : لا تسألني أنا ما الذى ينبغي عمله الآن ؟ أى علم لي ؟ لماذا لا تذهبون فتسألون قادة القوم الذين يعتزلون أو يعتكفون في خلوة أربعينية إلى أن يصلهم خبرما ؟ كل طفل يعلم أن لكل داء دواء ، على سبيل المثال : قضية التموين ، من الغد أرسلوا كل أهل الحق داخل المدينة لعمل تعداد ، واجردوا كل ما في مخازن الحكومة وسجلوه ، وسجلوا على الورق كم يوجد من المحتكرين ، هذا أمر لا مراء فيه .

قال حسن آقا : في ذلك الوقت ، هل أنت جاهز للتوقيع على قرارات مصادرة أموال المحتكرين ؟

قال ميرزا أسد الله : – يعنى ماذا ؟ تريد أن تدفعنى لإصدار حكم؟ لا يحتاج الأمر بعد إلى حكمي ، فأنت نفسك تعلم كيف تجعل الناس يقتحمون مخزن فلان المحتكر .

قال حسن آقا : أردت أن أفهمك أن الحكم ليس بالأمر السهل .

قال ميرزا أسد الله : هذا ما كنت أقوله ، منذ اليوم الأول الذى دق فيه هوس الحكم في رؤوسكم ، والآن عجزتم فيه ، بلا خطة قط ، ومن هنا فأنا لا أرى فرقا بين هذه الحكومة وتلك الحكومة ، نحن في الأصل لا نعيش حياة بشرية ، بل نحيا تماما كالنبات ، مثل شجرة ، عندما يأتي الشتاء ويلقي بأوراقها تظل في انتظار الربيع حتى تنبت أوراق أخرى ، ثم تظل في انتظار الصيف حتى تثمر ، ثم انتظار المطر ، ثم انتظار السماد .. وهلم جرا ، كلها في انتظار التطورات الطبيعية ،

تطورات من خارجها ، وهم كانوا على هذا النسق ، وأنتم أيضـــا ، غافلين عن أنه إذا بقيت كذلك في انتظار التطورات الخارجية ، سيهمي السيل ، أو تهب عاصفة حارة دفعة واحدة ، حتى يحدث القحط مرة واحدة .

قطع ميرزا عبد الزكي كلام ميرزا أسد الله وقال : عزيزى ، مرة ثانية بالغت ، إذن فكل هذه المدافع التي يصبونها ليست استعدادا .

قال ميرزا أسد الله : ولم لا ؟ هي استعداد ، لكنها استعداد للمذبحة أي للموت ، لا للحياة ، وهؤلاء الحضرات كان من المقرر أن يهيئوا امكانات أكثر لحياة الناس ، وقد عجزوا ، فذهب زعيمهم واعتكف في خلوة أربعينيـــة . لماذا ؟ لأنه لم يكن ينتظر هذه التحريضات ، أي لم يكن مستعدا لمقابلة تطورات خارجية ، هذا الاعتكاف في أربعينية عمل أولئك الذين يظنون أن التطورات الخارجية إما أنها رحمة إلهية أو بلاء سماوى ، وهذا تماما ديدن بداية الخليقـــة .

قال حسن آقا : ميرزا ، إنك تستطيع فحسب أن تقف على حافة الحفرة .

قال ميرزا أسد الله : أهذه إذن هي حافة الحفرة ؟ أنا الذى كنت أخاف من الحكم ومن القضـــاء مضطر كل يوم إلى إصدار مائة حكم، ثم تريد منى أيضـــا أن أحكم بمصادرة أموال الناس .

قال حسن آقا : إذن فأنت ترى أن يموت كل الناس من الجوع ، حتى يقوم المحتكرون بعملهم .

قال ميرزا أسد الله : إذا مات كل سكان المدينة ، لن يستطيع المحتكر أن يبيع بضاعته بضعف السعر ، المشكلة هي : ماذا نفعل حتى يستريح الناس ، وفي نفس الوقت لا يحتاج أحد إلى الإحتكار ؟ وهذا الأمر يريد خطـــة . كل اولئك الذين لوثوا الحكم بدم الناس ، كانت لديهم نفس هذه المشكلات ، أي فوجئوا بأن فلانا من الناس أو حادثة كذا ليست وفق هواهم ، فدهمهم الخوف ، وتساءلوا : ماذا نفعل ؟ وماذا علينا ألا نفعل ؟ فلنواجه هذا مثل أي إنسان خائف وبأي شكل : نصادر مال فلان ، نعدم فلانا ، نقمع عائلة كذا ، وهم في غفلة عن أن الجذر لا يزال تحت الماء ، وعندما تقمع الاحتكار ، يظهر وجع رأس جديد ، ينبغي أن نرى من البدايـــة : لماذا يحتكر فلان أصـــلا ؟

قال حسن آقـــا : لأر ، أكان ثمة فرصة لهذه الأمـــور ؟

قال ميرزا أسد الله : قلت من البداية أنكم لا تفتأون تتشدقون بأن الأمور تجرى تلقائيا ، كنت أعلم أنك مادمت قد صرت حاكما ، فلن تستطيع ثانية أن تتظاهر بالتقوى المبالغ فيها . كنت أعلم أنك لابد وأن تغمض عينيك ، وتصدر الأحكام ، وتلقي بالرعب في القلوب ، وتخوف حتى لا تخاف . كنت من البداية معارضـــا لكل نوع من الحكومات ، أنا الذى قلت أن كل أمر من أمور الدنيـــا إذا حُل عرفيا فقد حُـــل - وإلا بقي بلا حل إلى يوم القيامة ، هذا لأن نطفـــة كل حكومة قد عقدت في فترة الحكومة التي قبلها .

وبينما كان ميرزا أسد الله يعطي الكلام حقه على هذا النحو ، إذ

جاء وا بالغذاء ، أرز مقرمش في كل مغرفة قطعة صغيرة تائهة من اللحم المدقوق مع خبز غليظ ولب جوز مدقوق وجبن قِرَبي ، فانتهى النقاش ، واعتذر حسن آقـــا بأنه لم يستطع الحصول على لحم ، وقال ميرزا أسد الله أن هذه الأيام ليست أيام الإعتذار ، ثم قرروا أن يتم تعداد المدينة ، ومن الغد يذهب ميرزا عبد الزكي مع كل الكتبة الذين تحت رئاسته ويسيرون في المدينة لإجراء التعداد وتحديد التموين ، وقبل كل شيء أن يحدد تموينا معينا لحريم القلعة الذين احتجوا بالشكوى والنواح والاستغاثـــة ، ثم لطلاب المدارس ، ثم للدراويش أنفسهم الذين كانوا قد ترفهوا منذ فترة وجيزة فحسب ، ومن ثم أخذوا يسرفون إسرافا شديـــدا .

في اليوم الثاني للتعداد سرت شائعة بين الناس بأن هذا التعداد مجرد مظهر وأن الدراويش آخذون في الخفاء يمهدون للتجنيد الإجبارى، ولأن كل إنسان لم ير ضررا في أن يحتاط ، فقد أخفى أهل المدينة أولادهم الشبان ، بل ولم يقدموا قائمة بأسمائهم في الأصل ، وأقسموا بأغلظ الأيمان أنهم إما ذهبوا مع الجيش منذ فترة ، وإما ماتوا ، وأخذ ميرزا عبد الزكي ورفاقـــه يناقشون الأمر في رؤوسهم ، أو ينظرون في الدفاتر والسجلات ، ربما استطاعوا بالحدس والتخمين أن يقدروا العدد الحقيقي للأهالي ، فعلاوة على أزمة اللحم حدثت أيضا أزمة في الفحم والحطب والأعلاف ، ولم يكن عند أحد من العلافين في ذلك الوقت مقدار مثقال من الفحم أو الحطب أو الحبوب ، ولم يكن أحد القصابين يجرؤ على فتح دكانه ، وكل ما كان يصـــل من حطب وفحم كان يمضي

مباشرة إلي أكوار القلعة ، أما أهالي القرى فمنذ فترة طويلة ، كانوا قد ترددوا في التعامل مع الدراويش ، واضطر كل من لديه حمار أو حصان أن يذبحه في المنزل ويفرمه ، ويحشو به القرب ، لأن الناس الذين كانوا قد عجزوا عن تدبير اللحم والخبز لأنفسهم لم يكن لديهم الصبر بعد على أن يفكروا في علف حمار الأسرة الأعرج ، وكان أن خلت أغلب حظائر البيوت ، ويعتقد رواة الأخبار ، أن عادة إنشاء حظيرة في البيت قد انتهت أصلا منذ ذلك الوقت ، وأصبحت البيوت أكثر اتساعا .

يا أعزاء القلب ، وهكذا أخذت الحوادث السيئة تتوالى وتتوالى في أثر بعضها البعض ، وأخذ الناس يشدون الأحزمة على البطون يوما بعد يوم ، ويصبحون أكثر يأسا وضيقاً حتى أواخر الشهر الخامس لحكومة الدراويش ، إذ حدث ثانية صباح ذات يوم ، أن انطلق كل الأهالي من رجال ونساء من بيوتهم إلى الخارج ، تماما كالنمل الذى صُب ماءٌ في جحره وأحس بالخطر ، كانوا خائفين مرعوبين ، انهمروا في البداية فرادى ، ثم جماعة جماعة ، ثم حيا بعد حي ، خرجوا من البيوت وتقاطروا في أثر بعضهم ، ثم تحيروا ، ووقعوا في حيص بيص ، ، لم تكن أيديهم تصل إلى شيء ، ولم يكونوا حتى ذلك اليوم قد رأوا سوءا من الدراويش ، فاضطروا إلى الهجوم على مزارع التوت التابعة للأوقاف في أطراف المدينة ، واقتلعوا الأشجار العارية من الأوراق والثمار والتي كانت قد غاصت حتى أواسطها في الثلوج بضربات الطبر والمعاول ، اقتلعوها وقطعوها وحملوها إلى منازلهم ، لكن السيء في الأمر ، وربما كان بتحريض من عملاء الحكومة السريين الذين كانوا

يزدادون قوة يوما بعد يوم ، أن قتل في تلك المعمعة إثنان من الدراويش ، لأنهما لم يكونا قد وافقا على مرافقة الناس ، أو امتنعا عن إقراض طبرزيناتهما لأحد أو تمازحا مع أحد أو وقفا يمنعان عملا من الأعمال ، وبمجرد أن وصل الخبر إلى القلعة والتكايا حتى تقاطر الدراويش جميعهم مسلحين غاضبين إلى داخل المدينة ، وعادت الأوضاع إلى حالتها الأولى : الناس في ناحية ، والدراويش في ناحية ، تماما كالحراس والعسس والدرك أيام الحكومة ، والذين كان الناس يخافون منهم ويتجنبونهم ، ومن ذلك الوقت فصاعدا ، لم يعد أحد يجرؤ على الخروج من منزله وحيدا وبلا سلاح ، لا الناس ولا الدراويش . وبدأ الدراويش – الذين لم يكونوا قد أظهروا عنفا حتى ذلك الوقت – في استعراض قوتهم بالتدريج . في البداية بضرب الناس الذين كانوا يزدحمون أمام المخابز ، ثم صفع أولئك الذين كانوا يحضرونهم إلى ديوان القضاء على أقفيتهم ، حتى تطور الأمر وقاموا ذات صباح مشمس ودافيء بشنق ثلاثة من محتكرى المدينة أمام مخازنهم السرية دون إذن من ميرزا أسد الله .

يا أحباء القلب : بمجرد أن شاع خبر شنق هؤلاء التجار الثلاثة داخل المدينة ، حتى أُغلق السوق ، وسرت شائعة بأن أحد التجار لن يشترى بعد البضائع التي يصنعها الدراويش ، وأن أحد الصرافين لن يقبل بعد حوالاتهم وأذوناتهم وصكوكهم . حقيقة أنه في اليوم التالي ذهب زعماء السوق إلى القلعة ، ووعدوا بفتح السوق ثانية بشرط أن تُنزل الجثث فورا من على المشانق ن وتدفن . وكان هذا ما فعلوه ،

وأخذوا الجثث المتخشبة المتجمدة من الدراويش ، وشيعوها إلى المقابر بالتهليل والتكبير والصلوات التي كان صراخ عملاء الحكومة السريين وهتافهم يجعلونها مائة ضعف ما هي عليه .. لكن السيف كان قد سبق العزل ، ووقف أهل المدينة والدراويش في مواجهة كل الآخر ، وقفة لا رد لها .

السيء في الأمر ، أنه تماما عندما كانت الجثث تشيع إلى الجبانة بالأعلام والطبول والرايات ، وصل رسول أهل السنة مع الحراس والحجاب إلى ما خلف البوابة، ومهما حاول الدراويش إخفاء الأمر ، لم يستطيعوا ، فقد كان صف المشيعين يتحرك ببطء ، وهتاف " لا إله إلا الله .. والله كريم "يصل إلى الفلك ، وكان وخز البرد خلف بوابة المدينة قد بلغ درجة بحيث لم تعد هناك حيلة ، وتواجه رسل أهل السنة مع جماعة المشيعين بينما كانوا يخرجون من البوابة نحو الجبانة .

حقيقة أنه بشنق هؤلاء التجار الثلاثة ، حسب المحتكرون الآخرون حسابهم ، أو على الأقل ، أتيح ذلك القدر الذى كان موجودا في ثلاثة مخازن كبيرة للمؤن أمام الناس ، ونال أهل المدينة حظا منها ، وقل الخوف من المجاعة ، لكن المياه التي جرت في النهر لم تعد قط إلى مجاريها ، ووقف الدراويش وأهل المدينة مرة ثانية كل فى وجه الآخر ، وكان العملاء السريون يوسعون في نطاق هذا الخلاف ، وحقيقة أن رواة الأخبار لم تكن لديهم الفرصة لحك رؤوسهم خلال ذلك الصخب وتلك الضجة ، ولم يستطيعوا على الأقل أن يعلموا شيئا عما دار بين سفير

أهل السنة وتراب تركش دوز ، ولكن استنباطا من كلام حسن آقا الذى كان ميرزا أسد الله قد ذهب إليه غداة ذلك اليوم معاتبا ، يمكن الحدس أن المحادثات بين رسول أهل السنة وتراب تركش دوز ، لم تجر بشكل ودى .

أما عتاب ميرزا أسد الله ، فكان فحواه أنه غداة شنق المحتكرين الثلاثة ، استطاع بمشقة شديدة أن يجد حسن آقا ، وأخذه إلى زاوية إحدى التكايا ، وبادره قائلا وهو لا يزال واقفا :

– رأيت يا رفيق ، في النهاية تلوثت ايديكم بالدم .

وأجاب حسن آقا غاضبا مهتاجا :

– أنت أيضا تلوم ، لقد تخلينا عن أغلب مبادئنا حتى لا نسفك دما ، تذكر قضية النسوة ، أو قضية طلاب المدارس وإعفاء أملاك ميزان الشريعة ، لكن لم يجف كفنا هذين الدرويشين بعد !

فقال ميرزا أسد الله : إذن فقد انتقموا ؟ هـه ؟ أليس كذلك ؟

وقال حسن آقا : إحسبها هكذا ، والزعيم الأوحد بمجرد أن أصدر الأمر بهذا ، أغمى عليه !!

وقال ميرزا أسد الله : لا بد أن رسول أهل السنة قد وضع الطين بالقش تحت أنفه ليفيق !!

وقال حسن آقا الذى كان غضبه قد انفجر تماما :

– أنظر يا ميرزا ، عندما تتكلم أنت بهذه اللهجة ، ماذا تنتظر

آخرا من رسول أهل السنة ؟ ميزان الشريعة وخانلرخان وكل العملاء السريين في المدينة يعملـــون ويحرضـــون الناس لحظة بعد لحظة وأنت تتحدث بهذا الشكل ؟! فليذهب رسول أهل السنة إلى الجحيم !!

وعلى هذا النحو ، كان أن فهم رواة الأخبار أنه لم يُتوصل إلى نتيجة ما من رسول أهل السنة ،لأنه في نفس ذلك اليوم سرت شائعة أن قبلة العالم قد تصالح مع نفس حكومة أهل السنة ، وسلم قطعة من المملكة أخذ في مقابلها أربعمائة مدفع بعيدة المدى ، وعندما تتكسر حدة البرد ، سوف يتحرك نحو المدينة .

على أي ، عندما عاد الرسول ، لم يحدث شيء ، وفتح سوق المدينة ، لكن الصرافين كانوا كلقمة من الخبز ابتلعتها حلوق الكلاب المشردة في المدينة ، لم يكتفوا بعدم فتح دكاكينهم ، لكنهم هم أنفسهم اختفوا ، ولا جدال أنه من ميزات عمل الدراويش أنهم لم يكونوا يحتاجون كثيرا إلى النقود السائلة ، فلا هم كانوا يدفعون أجورا للدراويش ، ولا كانوا يحتاجون إلى النقود للشراء من السوق . كان كافيا أن يقوموا بمقايضـــة بضاعة ببضاعة في تعاملهم مع السوق ، لكن منذ أن أخذ القرويون لا يعترفون بحوالات الدراويش وأذوناتهم ، ولا يعطون في مقابلها القمح والشعير والأغنام ، اشتد الأمر ، والآن وقد انعدم الصرافون هم أيضـــا ، فقد وقعوا في حيص بيص ، وصبروا يومين أو ثلاثة فأسبوع حتى خمسة عشر يوما ، ولا خبر هناك عن الصرافين ، ومن جهة أخرى فمخازن المدينة آخذة في الخلو واحدا بعد الآخر ، وينبغي التفكير في حل ما ، وعندما كنت تذهب إلى أحد الصرافين ، إما

أنه أصـيب بذات الجنب وسـقط طريح الفـراش ، أو سـافـر ، وفي النهـايـة ، في أول اليـوم السـادس عـشـر ، تقـاطر الدراويش والبنادق على أكتـافـهم ، وكسروا أبواب دكـاكين الصـرافين واحـدا بعـد الآخـر ، وحطموا خزائنهم وأدراجهم ، وعندما لم يحصلوا على شيء ، تقاطروا على دورهم ، وأخذوا سبعين شخصا إلى السجن وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم ، وفرضوا على كل منهم غرامة تبلغ ألفي عملة ذهبية ، وكان من حسن حظ الدراويش أن التجار أنفسهم لم يكونوا راضين عن أى واحد من هؤلاء الصرافين ، ذلك أن كلا منهم كان قد جمع ثروة طائلة عن طريق الربا ، وكانوا موضع حسد وبغض من التجار ، وحقيقة أنه لهذا السبب ، لم يرتفع صوت من السوق ، وظلت أوضاع المدينة هادئة لفترة ما ، لكن من أسف أن الدراويش اضطروا إلى ترميم مبنى السجن وأبوابه من جديد ، أى نفس الأبواب والجدران التى كانوا هم أنفسهم قد خربوها ، وأخذوا يسيرون خطوة بخطوة في نفس الطريق الذى كانت الحكومة تسير فيه ، أى أنهم من اليوم التالي فرضوا المكوس على البوابات ، ووضعوا حركات الناس تحت الرقابة ، وفرضوا ضرائب على دخول الحانات والغرز ، وخفضوا كراية طلاب المدارس وحريم القلعة إلى النصف ، وكذلك كراية دار المجذومين ودار المجانين . وعندما تطور الأمر إلى هذا الحد ، اندس العملاء السريون بين الناس وأطلقوا شائعة قائلين : " يا قوم ، مالكم تجلسون والدراويش من أجل التوفير في المؤن يريدون أن يخرجوا كل المجذومين والمجانين بحيث يتقاطروا على المدينة " ، وتقاطر الناس - الذين كانوا يحرضون لأقل خبر - ذات غروب بزعامة

العملاء السريين ، وبضجة شديدة ، وبينما كانوا يتناقشون فيما يجب عليهم أن يفعلوا أو لا يفعلوا ، لم يصر معلوما قط داخل تلك الضجة من بالضبط تفوه بهذه العبارة : " لنذهب فلنشعل النار في بيت المجذومين "، فعرج الناس مهاجمين بضجة وصخب نحو دار المجذومين ، وبينما هم يمضـــون ويطوفـــون بالحـــوارى ويســيـــرون خلف المشـاعل ، إذ وصل الحكيمباشي خال ميرزا أسد الله لاهثا متصببا عرقـــا متوكئا على عصـــــاه إلى تكية السروجيـــــة ، فلأن الأمر كان متعلقا بعمله ، عرف أسرع من الجميع ، فعطل عيادته ، وانطلق في طريقه .

وكان ميرزا أسد الله ورفاقه لا يزالون مشغولين بصراخ ورثة اولئك المحتكرين الثلاثـــة الذين شنقوا إذ دخل خان دايي إلى المهجع قائلا :

– أيها الولد الأحمق ، أوباش المدينة ذاهبون لإضرام النار في بيت المجذومين ، وأنت مشغول هكذا في الإرث والميراث ؟ في ألف داهية كل وارث ومـوروث إن لم تذهب للوقـوف أمـامـهم ، أو إن كـان لك حق في رقابهم ، انهض ، ولنمض لنتدبر أمور هؤلاء المساكين .

فكان أن نهض ميـرزا أسـد الله مـتـعـجـلا ، وسـار كل الدراويش المشـتـغلين في ديوان القـضـــــاء في أثره ، ودبروا حـمـار لخـان دايي بشكل أو بآخر ، ووصلوا من الحارات الخلفية إلى دار المجذومين أسرع من أوباش المدينة ، واصطف الدراويش ، وحشوا البنادق ، وجلسوا على ركبهم في وضع الاستعداد لإطلاق النار ، إذ وصلت جماعة الأوباش والمشاعل في أيديها زاحفة بضجة وصخب .

كانت الجماعة تتقدم على هذا النحو ، إذ أصدر ميرزا أسد الله نفسه الأمـر بإطلاق أول رصاصـة ، وبمحض سماع الأمر ، حرك خمسة من الدراويش الزناد ، وارتفع صوت انفجار ، وانطلقت خمسة رصاصات في الهواء ، ووقفت الجماعة على بعد مائة قدم مثل قطيع يصل فجأة إلى حافة منحدر ، وفي خلال هذه الضجة ، كانت جماعة من مائة درويش قد وصلت لمساعدة ميرزا أسد الله وجماعته ، ووصلوا وهم يعدون من الحارات المجاورة ، وحصروا جماعة الأوباش بينهم ، ولا أطيل عليكم ، انطلق الرصاص ، وانهمرت الحجارة ، وتحطم جبين خان دايي ، ونفق حماره ، وقتل إثنان من الدراويش وخمسة من الأوباش ، وقبض على خمسين شخص حتى استقرت الأوضاع ، ونجا المجذومون من الاحتراق في النار ، وأوصل ميرزا أسد الله خان دايي إلى منزله ، وما إن أوصله ، وعاد إلى داره متعبا موشكا على الهلاك حتى دق الباب ودخل حسن آقـا .

– كيف أنت يا ميرزا ؟ سمعت أنك نفسك الذى أصدرت الأمر .

قال ميرزا أسد الله : في النهاية تعلم أن الرجل الشيخ لم تعد له قوة حتى على ركوب الحمار ، ثم إنهم كانوا موشكين على الهجوم على دار المجذومين لإحراقها ، الأمر كان في منتهى الجديـة .

قال حسن آقـا : نعم يا ميرزا ، دائما ما يجرى الأمر هكذا ، بحيث ينسى المرء التسـاؤل .

ثم أعطاه شهادة التقدير الثانية من تراب تركش دوز ، وأمر بأن

تضاعف كراية دار الشفاء ، ومضى . ولم يتناول ميرزا أسد الله طعام عشائه ، وظل تلك الليلة حتى الصباح ساهرا يفكر ، ظل يفكر حتى نفد الزيت من سراجه ، وهو جالس أسفل الكرسي ، عندمـــا فقد وعيـــــه .

يا أعزاء القلب .. استمر تربيع التحسين الذى كان مقدرا لثلاثة أيام ، استمر ستة شهور ، ولم تكن الأرض قد تنفست بالكاد ، وبينما كان الثلج يذوب في الأحواض ، إذ سرت شائعة صباح ذات يوم بأن جيش الحكومة قد تحرك ، وأنه آت بسرعة شديدة ، والآن فكل ما كان يدور على الألسنة حول اتفاق قبلة العالم والدولة السنية الجارة كان كالآتى : الأربعمائة مدفع صارت أربعة آلاف ، وولاية من المملكة صارت نصف المملكة ، وكل المدفعجية في الجيش صاروا من أهل السنة ، وهم قادمون للقصاص لدماء كل أهل السنة التي كانت قد أريقت في تلك السنوات ولحصد الشيعة حصـــدا بالمدافع ، وتماما عندما انتشرت روائح الربيع داخل أكثر حجرات المدينة بعدا ، انتشر خبر حركة جيش الحكومة ، بل اختلقت جماعة أن الدراويش أنفسهم قد تعبوا من الحكم ، وقدموا عريضة " استسلام فحواها جعلت فداك " إلى قبلة العالم ، مقسمين عليه بأغلظ الأيمان أن يعود " لتربية العجل الذى ولد له :" ولا جدال أن الجزء الأخير كان مجرد مزحـــة ، لكن أول نتيجة لحركة الجيش أن ازدحمت دكاكين الوشامين تماما كالمخابز ، فكل من وشم على ظهر يده صورة الطبرزين ، كان يأتي وهو مستعد للتضحية برأســـه في مقابل محو الوشم ، في تلك الأيام ضرب كثير من أهل المدينة ظهور أيديهم بالسيف أو بالإبر ، أو وضعوا عليها روح الخل أو

الزئبق أو الزرنيخ ، ولفوها بالضمادات . والخلاصة فعلوا أى أمر تظن لكي يمحوا الوشم من على ظهور أيديهم ، وبلغ الأمر أن كثيرا من الرجال الذين وشموا صدورهم بصورة " بيجن ومنيجه "[1] أو الفتوات الذين وشموا سواعدهم بصورة " رستم " بلحيته المزدوجة ورأس الشيطان الأبيض ، بل وعجائز الغجر اللائي كن قد وشمن أسفل حلوقهن بصور الحيات والعقارب والأفاعي ، كلهم تقاطروا على أبواب دكاكين الوشامين لمحو الصور الموشومة ، ونسي القحط وانعدام الخبز والطعام نسيانا تاما . حقيقة أن نوارا جديدا كان قد أطل من أشجار التوت المخربة من أطراف المدينة ، وأن رائحة الربيع كانت قد أصابت الناس ، وهدأت من حرصهم ، لكن المهم أن الإنسان عندما تكون رأسه مشغولة لا يفكر ثانية في البطن وما تحت البطن ، وكانت رؤوس سكان تلك المدينة في ذلك العصر والأوان في الواقع مشغولة ، لأن كلا منهم كان قد أسقط في يده وهو يفكر عندما يصل جيش الحكومة ، كيف يثبت أنه لم يتردد على الدراويش ، ولم تكن له معهم أدنى علاقة ، وماذا يفعلون لكي ينقذوا مصادر رزقهم والقوت القليل الذى عندهم من الخطر .

أما ما جرى بشأن الدراويش ، فاسمعوه .. عندما وصل الخبر ، تقاطروا خارجين ، ولمدة يوم استولوا على كل مداخل الخندق الموجود حول المدينة ، وفيما عدا اثنين من ممراته الترابية التي كانتا تكونان

---

(١) بيجن ومنيجه إسمان لبطلي قصة حب إيرانية مشهورة . المترجمة .

جسرا إلى البوابتين الجنوبية والشرقية للمدينة ، خربوا بقية ممراته ، وجعلوا الخندق ممتدا ، وربطوا مجارى مياه الربيع بحفرة الخندق بحيث تمتليء بالماء حتى صباح الغد ، وعندما اطمأن بالهم من هذه الناحية ، أخرجوا كل المدافع التي كانوا قد صنعوها وهم يهللون ويكبرون ،إلى خارج برج المدينة وسورها ، وحول المدينة مسافة بمسافة ، نصبوا مدفعين خلف ساتر فوق الأرض ، وإلى كل مدفع ، وضعوا خمســـة من الدراويش المدفعجية ، وأخذوا الجياد والبغال التي تجر العربات وتركوها ترعى داخل أشجار التوت ، كما أرسلوا خمسة من مدافعهم القديمة إلى الجبل الواقع جنوب المدينة ، واستولوا على الممر الذى يجب أن يعبره جيش الحكومة لكي يصـــل إلى المدينــــــة .

أما ما كان من أمر كاتبينا ، فقد كانا مشغولين بعمليهما بحيث لم تكن لديهمـا الفرصـة في الأصل للتفكير في أنه من الممكن أن تنقلب الأوضـــــاع ، لكن في غروب نفس ذلك اليوم الذى انتشر فيه خبر عودة الجيش ، أرسل خانلرخان أى رئيس قيمي الحرم إلى ميرزا عبد الزكي داعيا له أن يطل على الحرم أطلالة ، ومن قبل رأيتم أن مثل هذا الأمر كان يجرى ، وأيضا ذهب ميرزا عبد الزكي ظنا منه أن مشكلة جديدة قد حدثت في الحرم وتبادلا التحيات ، وجلســـا ، وقال خانلرخان دون أن يدخل في مقدمات :

- إذا وصل جيش الحكومة ، ماذا ستفعل يا سيـــد ؟

فقال ميرزا عبد الزكي : نفس ما سيفعله أهل الحق كلهم يا عزيزى .

قال خانلرخان :- وإن ألقوا بهم كلهم في قزان ماء مغلي ، فكيف يكون الحال ؟

قال ميرزا عبد الزكي : ليس دمي أغلى من دماء الآخرين يا عزيزى .

قال خانلرخان : إذن فأنت في الواقع موضع سر يا جناب السيد ؟ هذا ما لم يكن يتأتى منك .

قال ميرزا عبد الزكي : ليس في الأمر أمانة ســـــر ، لكن كل شوك وقذى يصلح لأمر ما ذات يوم .

قال خانلرخان : إذن فقد صدقت أيضـــا ؟ حسنا أن الوقت لا يسمح بأن تقوم بدعوتي .. كنت أريد أن أقول لك أن قبلة العالم قد أعد لنفسه حريما جديدا .

قال ميرزا عبد الزكي : حسنا يا عزيزى .. بالسلامة عليكم .

قال خانلرخان : لماذا لا تفهم يا جناب السيد ؟ يعنى لم يعد لديه أدنى اهتمام بالحريم الموجود.

قال ميرزا عبد الزكي : هذا ما هو معلوم من البدايـــة يا عزيزى ، وإلا لأخذهن معـــه .

قال خانلرخان : أنظر يا جناب السيد ، لا تتجاهل تجاهل العارف ، تعلم أن الجيش آت ، وأنه سيستولي على المدينة ، وحساب أهل الحق يا صاحب السعادة خالص تماما ، ولا يوجد إنسان قط يضحي بنفسه من أجل هباء لاجدوى منه ، الآن ، هل أنت مستعد أن تفكر ، وتعقد صفقة قائمة على العقل والفكر ؟

قال ميرزا عبد الزكي : صفقة يا عزيزى ؟! أية صفقة ؟ أنا لا شيء عندى حتى ...

ويقي كلامه في منتصفه لأنه كان قد فهم لتوه ماذا يريد خانلرخان ، فكان أن سمر بصره حائرا ساهما في خانلرخان ، وظل صامتاً . وقال خانلرخان الذى كان قد حصل على الفرصة المناسبة :

- أنظر يا جناب السيد ، قبلي وقبلك كثيرون هم الذين وقفوا لبعضهم البعض متواجهين من أجل إمرأة ، لكن أحدا منهم لم يحلوا المشكلة بهذا الهدوء والصفـــاء . هل تفهم ماذا أريد أن أقول ؟ أعلم أن حياتك بالنسبة لك عزيزة ، لكني قلت لعلك أيضا تهتم بأن تنقذ عددا من أهل الحق . تمام ؟ إذا كان الأمر كذلك ، طلق واذهب . وأنا أشترى أرواح أغلبكم .

ونظر ميرزا عبد الزكي ثانية لمدة طويلة إلى خانلرخان ساهما ، ثم أراد أن يقول شيئا لكنه رأى أنه لا يتحمل أكثر ، فزمجر من تحت أسنانه ، ونهض ، وخرج دون سلام ، مشى لفترة داخل فناء القلعة وهو حائر في حيص بيص ، ثم امتطى حماره البندرى سريعا ، ومضى في ظلمة الليل نحو منزل ميرزا أسد الله . وإلى أن فتح الباب كان قد ربط زمام الحمار في حلقة الباب ، ودلف إلى الداخل . كان ميرزا أسد الله جالسا إلى المنقد عندما دخل ميرزا عبد الزكي حائرًا مضطربا . وفي شتاء ذلك العام كان أهل المدينة قد رفعوا كراسيهم "مدافئهم التقليدية " مبكرا ، لكن كل من كان ذا قدرة ، كان يضع منقد نار في الليل ويتركه في الحجرة . أرسل ميرزا أسد الله زرين تاج هانم مع ولديه إلى الحجرة الأخرى وقال :

– ماذا حدث ثانية يا جناب السيد ؟

توقف ميرزا عبد الزكي على باب الحجرة وقال :

– مصيبة ، مصيبة يا عزيزى ، مصيبة كبرى ، ينبغي أن نفكر ، فأنا في سبيلي إلى الجنون يا عزيزى .. الجنون !!

قال ميرزا أسد الله : لماذا لا تأتى الآن إلى جوار النار ؟ قل لي ، لأر ماذا حدث .

سحب ميرزا عبد الزكي نفسه إلى جوار المنقد ، وجلس في مواجهة ميرزا أسد الله ، ونقل إليه ببطء شديد وباختصـــار شديد كل ما كان قد سمعه من خانلرخان ثم قال :

– أترى يا عزيزى ؟ عدنا ثانية إلى اليوم الأول ، يقف الآن أمامي هادئا ويقول كلمته ، اتفو على هذه الحياة ، كنت أشتهي أن تكون إحدى هذه البنادق في يدى يا عـزيزى ، وأن أعـرف كيف أطلقـها في كرشـه الضخم ، محروق أبوه !!

وبعد عدة دقائق من الصمت قال ميرزا أسد الله الذى كان قد بقي حائرا مندهشا بعد سماعه الحادثة :

– إذن فسوف يعود الجيش !! ألم تسأل آخرا كيف ..

وابتلع بقية كلامه ، وصاح ميرزا عبد الزكي قائلا :

– هل جننت يا عزيزى ، إذا كانوا يريدون عقد صفقة مع عرضك ، كيف تأتي وتسأل كيف ؟

قال ميرزا أسد الله : عفوا يا جناب السيد ، أنا لا أفهم ماذا أقول، حقا ساء ت الأمور جدا ، كيف نمضي إلى حسن آقا ؟ تريد الحقيقة ؟ الأمر أهم مني ومنك ..هذا الخنزير يمهد الطريق بهذا الشكل أمام أهل الحق ، إنه لا يريد عقد صفقة معك أنت فحسب ،انهض ، لنر هل نستطيع الليلة أن نجد عظماء القوم أو لا .

وانطلقا إلى الطريق ، وذهبا إلى حسن آقـا ، وبعد ساعة أو ساعتين من البحث ، وجدوا في النهاية تراب تركش دوز ، وهو يفتش على المدفعية حول المدينة ، وفي ظلمة الليل إلى جوار الخندق ، طرحوا الموضوع وهم يتمشون ، وعندما سمع تراب تركش دوز ما حدث وقف وقال :

– يا له من رذل عجيب ، هل ظن أنهم سيكسبون اللعبة بهذه البساطة ؟ وأضاف وكأنه يحدث نفسـه :

– إذن ففي النهاية نفع وجود هذا الحريم . وقال بصوت عال :

– لو كانوا واثقين أنهم سيكسبون لما بادروا بهذا الشكل

وتدخل ميرزا عبد الزكي قائلا :

– يا عزيزى ، إذا حدث وانتصروا ، أينبغي أن نفكر في أهل الحق أو لا ؟

قال تراب : حقيقة ينبغي أن نفكر ، لكن لماذا يجب أن تخرج هذه القرعة باسمك ؟ هـه ؟ حتما تحب زوجتك جدا يا عزيزى السيد ؟

وبدلا من ميرزا عبد الزكي الذى كان الخطاب موجها إليه ، قال ميرزا أسد الله :

- وهل تراه هائما في الصحراء ؟

وفي نفس هذه اللحظة ، وصل الأشخاص الأربعة إلى جوار أحد السواتر الموجودة حول المدينة ، كانت نار صغيرة مشتعلة بحيث كانت تعكس الظل المرتفع للمدفع طويلا عاليا ضخمسا فوق سور المدينة ، ونهض خمسة من الدراويش المدفعجية متعجلين من حول منقدهم الصغير ، هاتفين : الله ، الله ، ثم طأطأوا رؤوسهم ، وهش لهم تراب تركش دوز وبش ، وتحسس بيده هيكل المدفع وقال :

- فعلا مصيرنا جميعا مرتبط بفوهات هذه المدافع ، لو كنا أهل صفقات يا جناب السيدالعزيز لما صنعنا المدافع ، اذهبوا فعلا واستريحوا ، فبعد يومين أو ثلاثة ، لن تجدوا فرصة للنوم .

وفي طريق العودة ، ظل كاتبانا وحسن أقا صامتين لفترة ، ثم قال ميرزا عبد الزكي وكأنه يحدث نفسه :

- لا يا عزيزى ، الأمر الآن يختلف . ثم سكت ثانية .

وسأل ميرزا أسد الله : أى أمر هذا الذى يختلف يا جناب السيد ؟

قال ميرزا عبد الزكي : كل شيء يا عزيزى . أنا ودرخشنده وأنت وأهل الحق . الآن ، لست أنا فحسب خصم خانلرخان ، ودرخشنده أيضا لم يكن قد تبقى شيء حتى تفقد نفسها داخل سدى السجادة ولحمتها .. أجل يا عزيزى .

وسكتوا ثانية ، ووصلوا إلى منازلهم متأخرين ، وظل كل منهم ساهرا حتى صباح اليوم التالي يفكر . في صباح اليوم التالي ذهبت زرين تاج هانم كدأبها كل يوم إلى عملها ، فمنذ ضيافة منزل حسن آقا ، نصبت بمساعدة درخشنده هانم خمسة أنوال لنسج السجاد داخل منزل الحاج ممرضا ، والآن تذهب صباحا فحسب وتطل على ناسجي السجاد في منزل ميرزا عبد الزكي الذين كان لديهم درخشنده هانم مشرفة على العمل ، وبعدها كانت تذهب إلى منزل الحاج ممرضا وتقضي بقية اليوم هناك . وعندما وصلت زرين تاج هانم من الطريق ، نادت درخشنده هانم ، وأخذتها إلى ركن خال من المنزل وقالت :

- يا أخت ، يبدو أن الأمور تسوء مرة أخرى .

قالت درخشنده هانم : يا أختي ، هه ، مالي أنا ومالك أنت ، السجاد هو السجاد دائما له مشتريه .

قالت زرين تاج هانم : في النهاية يا أختي ، وإذا سببوا بعض المتاعب لزوجينا ؟

قالت درخشنده هانم : هه ، هه ، أية متاعب ؟ أي حصان أو بغل حصلا عليه ؟ ، أي خير رأياه من ألاعيب الدراويش ؟ وفي الأصل : هل يؤثر شيء في رأس السيد ؟ كلما أقول له دعك يا عزيزي من ألاعيب الدراويش هذه ، هل كان هذا يؤثر فيه ؟ والآن ما هو المتوقع أن يحدث ؟

قـالت زرين تاج هـانم : لاشيء قط يا أخـتى ، إنني أتحـدث على سبيل الإحتـياط ، ثم إنه من الممكن أن يعود جيش الحكومـة ، وعندما يعـود الجيش ، لن ينظروا ليروا من الذى سلب جوادا أو بغـلا ، مـهمـا يكون يا أختى ، فسواء زوجي أو زوجك كلاهما ذهبا ليشدا من أزرهم ، هذا ما لا يمكن إخفاؤه ، وهما لا يفكران في نفسيهما ، يقال أن الجيش عنده أربعمائة مدفع ، هل سمعت بهذا ؟

قـالت درخـشنده هـانم : يا أخت ، ألم تضـعي المدافع من صـنع الدراويش في الحساب ؟ لكنك تقولين الحقيقة ، فهل نسيت تلك المدافع التي انفجرت ؟

قاطعتها زرين تاج هانم قائلة : لا يا أخت ، ليس الأمر هكذا ، لكن كل ما عند الدراويش مائة وعشرون مدفعا ، على كل حال ينبغي أن نفكر في اليوم الأسود .

فكرت درخشنده هـانم قليلا ثم قالت : أتعلمين يا أخت ؟ جاء جناب السيد ليلة الأمس ، وحدثني بمسألة خانلرخان ، ولا بد أن ميرزا حدثك عنها ، وقد فكرت في كل الإحتمـالات ، المسكين لم ينم حتى الصباح ، تحدثنا في كل الأمور معا ، تعلمين يا أخت ، إذا كن النسـاء الأخريات مضطرات إلى تحمل حملهن تسعة أشهر على قلوبهن ، فأنا مصيرى في يدى ، لأني أعلق حملي في نول السجـاد المنقوش ، وكلمـا أردت أفكه، حقيقة أن كل سجاجيد العصر لا تسـاوى شعرة تسقط من رأس حميدة ، لكن لكل إنسان نصيبه ، ليجازيك الله أنت وميرزا بالخير ، لقد

فتحتما عيني ، قلت لجناب السيد أن يطمئن بالا ، فلست مستعدة حتى لإلقاء بصقة في وجه هذه القربة المنتفخة ، لكنني مستعدة لأجعل منه حمارا وأريه كيف يتأتى أمر من امرأة عاجـــزة .

نهضت زرين تاج هانم مسرعة وقبلت درخشنده هانم وقالت :

– كنت أعلم يا أخت ، القـدم المريضـة لا تعكف على عمل مـا .. حسنا لأر حقيقة ، تلك الصبية التي قطع الصوف يدها ، هل جاءت اليوم ؟

قالت درخشنده هانم : لا يا أخت ، أخاف أن تكون يدها قد عجزت عن العمل ، وفي طريقك مرى على منزل الحكيمباشي وأخبريه – إن لم يكن في الأمر تعب عليه أن يمر بها ويفحصها ، لا أدرى لماذا لم يأت نصف النساجين اليـــوم ؟

قالت زرين تاج هانم : ألا تدرين ؟ الناس يفرون من المدينة ، رأسك منصرفٌ جدا إلى عملك يا أخت .

قالت درخشنده هانم : إذن فالموضوع جدى ، حسنا . والآن حتى تقومين بإشرافك ، لآخذ ملاء تى علي ولأذهب لأطل على هذه القربة المنتفخة .

وانتهى كلامهما عند هذا الحد ، وخرجتا معا من المنزل . ذهبت درخشنده هانم إلى القلعة ، وزرين تاج هانم إلى منزل الحاج ممرضا .كانت الحوارى مزدحمة بشكل لا يوصف ، كان أغلب الناس مشاة ، والأقلية راكبة ، وكل ما كان لديهم قد حملوه على ظهورهم أو وضعوه

فوق عربات يدوية ، ، والنساء والرجال والأطفال يمضون نحو البوابات . كانت الحرب الوشيكة والقحط الذى جعل الناس جميعا يستغيثون ، قد جعل الناس أكثر رعبا من المعتاد ، وكان أن كل من يملك قدرة ، يجمع حاجيات حياته ويغلق باب داره ويتركه في أمان الله ، ويأخذ بأيدى زوجته وأطفاله ويمضي في الطريق ، وكان الدراويش بدورهم يرجون هذا من الله ، فكلما كان سكان المدينة أقل ، لزمهم تموين أقل ، ثم أن أيديهم وأقدامهم تكون أكثر حرية ، وكانوا أن نادوا بأن الأطفال معفون ، لكن على كل رجل وامرأة بالغة أن يدفعا على كل شخصين عملة ذهبية كرسوم للبوابة ، ويذهبوا في أمان الله ، وعلى هذا النحو كان أن أصبحت المدينة خالية تماما في بحر يومين ، ولم يتبق فيها أحد إلا عدد من الفقراء جدا أو الدراويش أنفسهم أو العملاء السريين للحكومة .

يا أعزاء القلب .. كان اليوم السابق لأربعاء الإحتفال(١) ، وكانت الشمس لا تزال في رابعة النهار ، وكان آحاد من أهل المدينة لا يزال لديهم الوقت لإعداد طعامهم ، إذ ارتفعت من الناحية الجنوبية للمدينة أصوات مختنقة لمدافع ، ونسى الناس كل شيء ، وتقاطروا إلى أعلى الأسطح التي وجدوها إلى جوارهم ، ولم تكن الشمس قد غربت بعد ، عندما ارتفع من عمق الطريق غبار وتراب ، وظهر عشرون أو ثلاثون فارس ، ولم يكن الفرسان قد وصلوا خلف البوابة بعد ، إذ انتشرت في

---

(١) أربعاء الإحتفال هو الأربعاء الأخير من السنة الشمسية والذى يسبق عيد النوروز وتقام فيه احتفالات وطقوس شعبية معينة . المترجمة .

المدينة شائعة بأن معسكر الدراويش في الممر الواقع أسفل المدينة قد تمزق إربا بكل مدافعه ، وأن جيش الحكومة سوف يصل الليلة ، وكان أن اجتاح الرعب الناس ثانية ، وحتى البقية الباقية تقاطروا بدورهم خارجا ، ووقعوا ثانية في حيص بيص ، ثم قاموا بالتقاطر نحو المساجد التي لم يكونوا قد مروا بأبوابها لمدة ستة شهور ، وبدلا من الألعاب النارية والقفز على النيران[١] ، ظلوا يتلون القرآن ، ودعاء " أمن يجيب المضطر " حتى الصباح ، وربما لهذا السبب لم ينتبه أحد قط إلى أنه حدث في نفس الليلة أن قامت جماعة تبلغ مائة شخص من الدراويش خفافا نشطين وكلهم من الفرسان بغارة ليلية على جيش الحكومة الذى كان قد عسكر في سفح الجبل الموجود جنوب المدينة ، وأحرقوا جزءا من خيام الجيش ومخيماته ، وغنموا مائتين وخمسين من جيـــاد الجيش ، وعادوا . وصبيحة ذلك اليوم فحسب ، عندما قام الدراويش بعرض الجياد التي غنموها من جيش الحكومة طوافين بها في المدينة ، وهم يبينون للناس الوسم على أفخاذها ، هدأ خوف الناس قليلا ، وانصرفوا إلى أعمالهم .

ولا جدال أنه لم يصل خبرٌ عن جيش الحكومة في ذلك النهار ، لكن قبيل الغروب ، ارتفع الغبار والتراب ثانية من الطريق جنوب المدينة ، وشوهدت طلائع الجيش رأى العين ، وفي الليل عندما عسكر جيش الحكومة ، كانت نيران مواقده تبدو من على بعد فرسخ ، وكان أن حل

---

(١) من شعائر الاحتفال مساء أربعاء الإحتفال . المترجمة .

الرعب ثانية بالناس ، وانحشروا داخل المساجد ، وظلوا يستغيثون بالحضرة الإلهية حتى الصباح مرة ثانية .أما ما كان من أمر الطرف الآخر ، فلم يكن يمكنه بلا جدال القيام بغارة ليلية ، لكن الدراويش كانوا قد حسبوا حسابهم ، وقبل بزوغ الشمس بساعتين ، فُزِّع سكانُ المدينة بأصوات مدفعية الدراويش التي تصم الآذان ، وهبوا ثانية إلى أعلى السطوح ، ورأوا أن جيش الحكومة قد بُوغت بشكل سيء ، وأنه في سبيله إلى التقهقر ، ناهيك عن أساس الموضوع كان على هذا النحو : إن الدراويش قاموا لخداع الجيش بإرسال أصغر مدافعهم وأقلها مدى إلى المعبر الموجود جنوب المدينة ، وكان الجيش قد ظن أن مدى كل المدافع التى صنعها الدراويش في هذه الحدود ، فتقدم بجرأة زائدة إلى مسافة ميدان أو ميدانين خلف أسوار المدينة ، وعسكر وهو في غفلة عن أن الدراويش عندما تحسنت أمورهم ، واستولوا على أهوان نحاسية عديدة ، جعلوا مواسير المدافع أكثر غلظة وطولا ، وكان من الممكن بمدافعهم الجديدة أن يطلقوا بسهولة على بعد ميدانين ، فكان أن كُسر جيش الحكومة مرة ثانية ، وانسحب ، وفي هذا الإنسحاب ترك خلفه عربة مليئة بالمؤن ، سحبها الدراويش بمساعدة الأهالي إلى داخل المدينة ، ووزعوها بين الناس الذين كانوا يعانون القحط ، ومرة ثانية انمحى خوف الناس ورعبهم .

ولاجدال في أن الدراويش أنفسهم كانوا يعلمون أنه إذا كان من المقرر أن يستسلموا للحصـــار ، فإنهم في خلال شهر سوف ينهارون ، لكنهم كانوا آملين في أن يقوموا كل عدة ليال بحركة يضربون بها

الجيش ضربة ، ويضعون بها الجيش في كل مرة أبعد قليلا ، ويقومون بتحرير المزارع الأكثر اتساعا حول المدينة ، وكان أن قاموا في اليوم الثالث لحصار المدينة بتقسيم مدافعهم إلى قسمين ، فوضعوا قسما منها أمام البوابات والقسم الثاني على بعد ميدان من المدينة مصوبا إلى جيش الحكومة من أجل المصادمات التاليـــة ، لكن جيش الحكومة الذى كان قد وعى الدرس من المرة الأخيرة تفرق حول المدينة ، وعسكر كل سلاح في ركن من الخلاء ، وأصبحت المسافة بين كل قسم من أقسام الجيش حتى المدينة أقل من فرسخ ، ومن هنا لم يعد للقصف فائدة ، وقبع كل طرف منتظرا . ومر أسبوع على هذا الحال ، وأثناء هذا لم ينتبه أحد إلى أن " العم نوروز "[1] قد جاء ومضى ، أما الأهالى الباقون في المدينة ، فبدلا من الإحتفال بالعيد وتحضير الخضرة وتنظيف المنازل ، فقد كانوا يجتمعون كل ليلة في المساجد لقراءة القرآن ودعاء " أمن يجيب المضطر " .

أما ما كان من أمر عملاء الحكومة السريين، فإنهم عندما رأوا جيش الحكومة لا يجرؤ على الهجوم ، وأن الدراويش متفوقون في الوقت الحاضر ، فقد وقعوا في حيص بيص ، لأنهم كانوا جميعا يعلمون إنه إذا طال الحصار ، ومل قبلة العالم ، فمن الممكن أن يأتي رئيس المنجمين مرة ثانية ويجلس لرؤية الطالع ، ويصرف الجيش عن الاستيلاء

---

(١) المقصود بالطبع عيد النوروز . والعم نوروز شخصية أشبه بشخصية بابا نويل في عيد الميلاد عند المسيحيين ، ولعل الشخصية الأخيرة منقولة منها . المترجمة .

على المدينة وتذهب كل جهودهم هدرا ، أو أنه إذا استولوا على المدينة بعد فترة من الصدام ، فمن الممكن أن يصدر قبلة العالم الأمر بمذبحة عامة لضيقــــه ونفاد صبره ، أو يتهوس لإقامة مئذنة من الجماجم ، أو إدارة السواقي بالدماء ولا يرحم صغيرا أو كبيرا ، فكان أن عقدوا جلسة سرية ، ولم تستمر ليوم واحد أو ثلاثة أيام فحسب ، بل استمرت أسبوعا كاملا ، وقابلوا خانلرخان وميزان الشريعة في السر ، وتبادلوا الآراء عما يجب أن يفعلوا ولا يفعلوا ، وانتهوا بإرشاد من خانلرخان إلى أن يذهبوا بليل ، ويقوموا بفتح الطريق السرى للماء إلى القلعة ، وبأى شكل يسربوا ماء الخندق إلى مخزن البارود . والحسن في الأمر أن الوقت كان فصل الربيع وبسبب وفرة الماء ، كان المشرفون على توزيعه قد صرفوا ، كما كان الدراويش قد أبعدوا بطارياتهم المدفعية من خلف الخندق ، ولم يكن هناك أحد ينتبه للأمر . فكان أن حدث ذات ليلة أن انطلق مائة شخص من عملاء الحكومة السريين ومعهم الفؤوس والأرفاش وتسللوا ببطء شديد إلى السد الأكبر لنهر المدينة والذى كان مفتوحا على القلعة ، وكان الدراويش قد أغلقوه في أول الحصار ، فلم تمض ساعتان حتى فتحوا السد ، وسرى الماء بطيئــــا وبلا صوت نحو الطريق السرى للماء إلى القلعة ، كما نقبوا جدارين من الأسوار ، وفتحوا طريقا للماء حتى تسرب والفجر يتنفس إلى مخزن البارود ، واتضحت المسألة عندما خرج نسوة الحرم حاسرات الرؤوس ، حافيات الأقدام يتقاطرن خارج حجراتهن صائحات : السيــــل، السيل جرى، وأى سيل ، أسود كالقار!!

وعندما بلغ الخبر مسامع تراب تركش دوز ، فهم أن الأمر قد خرج من يده ، فأصدر أمرا بمنع التردد على القلعة على الفور ، كما أغلقت بوابات المدينة ، ومنع طيران الحمام ، ثم أرسل في طلب خانلرخان ، فأتوا به مصفوعا على قفاه وأوشك الدراويش على سحقه بلكماتهم وركلاتهم ، وتذكر تراب تركش دوز تلك الليلة والموضوعات التي كان ميرزا عبد الزكى قد نقلها عنه ، فكان أن أمر الدراويش بأن يكفوا أيديهم عنه ، واختلى به ، وبعد ساعة خرج وأمر بإحضار رؤساء الدراويش على الفور ، وجلس معهم للتشاور . كان هناك ثلاثون شخص من أعلام الدراويش حاضرين عندما أُفتتحت جلسة المشاورة ، وفي البداية نقل كل واحد منهم ما لديه من أخبار إلى الآخرين ، ثم تحدث تراب تركش دوز قائلا :

– الليلة سوف يأخذ جيش الحكومة خبرا عن موضوع تسرب المياه إلى مخزن البارود ، أو على الأكثر غدا ، وآنذاك سوف نكون مكتوفي الأيدى ، وحتى نقوم ونعد البارود سيكون الوقت قد فات ، وقد رأيتم أنه لم يُتوصل إلى نتيجة من سفير أهل السنة ، وقد ذهب السيد " نور الدين " بنفسه وسلم سبعة مدن على الحدود ، وأخذ في مقابلها أربعمائة مدفع – أى استأجرها– لمدة ستة شهور ، ولو كنا نستطيع أن نقاوم في هذه الفترة لحدث شيء ، وقد قضينا شتاء بهذه القسوة ، ومن أسف أن أحدا لم يكن يفكر في الحفاظ على مخزن البارود ، ومن ناحية أخرى فإن الجو إذا صار دافئا ، فسوف يتقاطر النمل كله خارج جحوره ، ومع

ما اشتهرنا به من مصادرة الأموال والأملاك وتوزيعها ، فمن الغد سوف يمضي كل واحد من الخوانين " الإقطاعيين " والملتزمين ويأتي لمساعدة الحكومة ، في هذه الحالة تكمن الفائدة الوحيدة في بقائنا هي أن نكون ورقة صلح لكل العداوات والأحقاد القديمة بين الخوانين وقطاع الطرق ، لكن إذا أنقذنا أرواحنا ، فعلى الأقل سوف نحتفظ بنطفة أهل الحق سالمة . ومنذ ذلك اليوم الذى حكمنا فيه وحتى الآن ، لم نسفك الدم إلا ثلاثين مرة فضلا عن أن عشرة أشخاص من هذا العدد كانوا من بيننا نحن ، حقيقة أنه من أجل منع المذابح ينبغي الاستسلام أحيانا إلى أن نقتل أو نُقتل ، لكننا الآن فعلا لسنا في وضع يحتاج إلى مثل هذا الانتحار الجماعي ، وبقاؤنا يعنى الانتحار الجماعي ، ومن ثم ينبغي أن نمضي ونترك المدينة .

قال مولانا الذى تعرفنا عليه سلفا : إلى أين ؟

قال السيد : هذه مسألة تالية ، ينبغي أن نناقش أولا : أيكون الصلاح في الذهاب أم لا ؟ وفي رأيي أن الصلاح في الذهاب .

وعندما وافق كل الحاضرين على هذا الحل ، واصل تراب تركش دوز قائلا :

– عندما يئسنا من سفير أهل السنة ، تعلمون أني أرسلت السيد إلى بلاط الهند كي يقوم هناك بالدعاية للسلام الشامل ، وقد عاد السيد من الهند منذ أسبوع ، وأحضر معه خطاب دعوة ، وأظن أنه قد استراح بالنا من ناحية ما يحدث في الطريق من مضايقات ، فالصلاح

في أن نقبل هذه الدعوة ، لكن بشأن كيفية قطع طريق بهذا الطول سالمين ، فقد جاء خانلرخان ، واقترح عقد صفقة ، يقول : في حالة أخذنا لنساء الحرم معنا ، فعلاوة على أن أحدا لن يتعرض لنا ، فإنه سوف يمنح كل واحدة من النسوة خمسمائة قطعة ذهبية ، كما أن عقود طلاقهن جاهزة ، وأنتم تعلمون لا جدال عددهن ، وأنهن في مجموعهن يصلن إلى نيف و ثلاثمائة امرأة ، وأنا أظن أن هذا الحريم على الأقل هدية مناسبة لبلاط الهند .

قاطع مولانا كلام تراب وقال مزمجرا :

– إن لم أكن مخطئا ، فإن ثورتنا آخذة قليلا قليلا في أن تُختم بالقوادة ،

فضحكت جماعة ، واستغرقت جماعة في التفكير ، وواصل تراب تركش دوز مبتسما:

– أتريد أن نعقد عليهن جميعا يا مولانا ؟ على كل حال لقد جهزوا من المناطق الدافئة حريما جديدا للبلاط أكثر شهوانية ، والآن صار الحريم القديم باعث قرف ، ومصلحتنا في أن نختار ونأخذ معنا أكثرهن شبابا وجمالا ، فلديهن التحمل لمثل هذا السفر البعيد والطويل من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكن شيئا يصلح للهنود . ولقد قلت لخانلرخان أن هذه الصفقة من الممكن أن تتم بشرط أن يأتي هو نفسه معنا حتى الحدود كرهينة ، والآن حتى تقولوا رأيكم ، سوف يقرأ السيد نص دعوة بلاط الهند .

وقرأ السيد نص الدعوة ، وتشاوروا بعدها لمدة ساعة : أى طريق يسلكــون ، وماذا يأخذون معهم من أشياء ، وأية ضمانات يأخذوها ، ثم قرروا أن يتحركوا عندما يحن الليل ، وقاموا بتقسيم العمل .

كلفت جماعة من الدراويش أن تقوم طوال النهار بمناوشة جيش الحكومة بالكر والفر ، حتى يكون نومه ليلا أثقل من المعتاد ، وعندما يحل الليل عليهم أن يشعلوا المناقد إلى جوار المدافع أكثر ضراما من كل ليلة ، وأن يصلوا في الوقت المضروب ، وكلفت جماعة بإغلاق مخازن المؤن بعد وضع كل ما لديهم من بارود ومؤن في الأخراج والهميـان ، كما كلفت جماعة بتوسيع فتحات حشو المدافع ، وكلفت جماعة بجمع كل جواد وبغل يعرفون أنه موجود في المدينة . وعندما قسمت الأعمال تقرر أن يكونوا جاهزين عندما تمر ثلاث ساعات من الليل عند البوابة الشرقيـــة للمدينة .

يا أحبـــاء القلب .. كان حسن آقـــا أحد الحاضرين في جلســـة المشاورة . وبعد انتهاء الجلســـة كان أول ما فعل أن ذهب وقابل – وهو لا يزال داخل القلعة – ميرزا عبد الزكي ، وأخبره بكل الأمور ، وقال له أن يجمع أمره وأن يحضر في الموعد تماما ، كما طلب منه أن يمضي ويخبر ميرزا أسد الله بما تم . فكان أن وصل ميرزا عبد الزكي مسرعا إلى تكية السروجيـــــة ، ولم يكن في ممرها وفنائها دراويش يتسكعون والبنادق على ظهورهم ، كما لم يكن هناك خبر عن زملاء ميرزا أســـد الله . كان ميرزا أسد الله نفسه وحيدا منفردا قد

جلس خلف فرشه وهو مشغول بتبييض ديوان شعر ، كان واضحا أن رائحة نهاية الأوضاع قد فاحت ، وتبادلا التحية ، ثم قص عليه ميرزا عبد الزكي خلاصة الأحداث ونتيجة مباحثات الدراويش ، وقال في النهاية :

– على كل حال يا عزيزى ، أهل الحق سوف يذهبون الليلة ، ثم يا عزيزى من جديد نفس ذلك الحساء ونفس ذلك الطبق !!

قال ميرزا أسد الله : لا بد أنك سوف تذهب معهم .

قال ميرزا عبد الزكي : بالطبع يا عزيزى ، أنا لم أجد روحي في الطريق ، ثم إننا لسنا في عصر ليلى والمجنون حتى أفقد كرامتى وحياتي من أجل إمرأة ، تحدثت في كل الأمور مع درخشنده ، والحمد لله ليست هي في حاجة إلى . وأنت أيضا يا عزيزى ، ينبغي أن تمضي .

قال ميرزا أسد الله : لماذا ؟ ترى ماذا حدث ؟ كان هناك مريض بالحمى ، وعرق .

قال ميرزا عبد الزكي : أتظن يا عزيزى أنك سوف تواجه ملائكة ، أول من سيسعى في أثرك هو معاون القسم. عزيزى : هل نسيت أى بلاء صببناه على رأسه بينما كنا في القرية ؟ أنا وأنت يا عزيزى ذهبنا وعشنا تحت جناحهم أى صرنا شركاء في الجريمة ، تراك لا تعلم أن أساس هذه الحكومة قائم على الحقد ؟

قال ميرزا أسد الله : أعلم يا جناب السيد ، لكني لم أرتكب جرماً .

قال ميرزا عبد الزكي : لست أفهم يا عزيزي ، إذا جاء الجيش ، فأنت أول من يُقبض عليه ، مع سوابقك إياها ، ومع أعمال ديوان القضاء ، هه أتظن يا عزيزي أنهم سوف يأتون ويضعون تاج الفخار على رأسك ؟

قال ميرزا أسد الله : حسناً ؟! وبعد ؟

قال ميرزا عبد الزكي : ليس فيها بعد يا عزيزي . تريد أن تضحي بنفسك ؟ تريد أن تصبح شهيدا ؟ حقيقة أن عبادة الشهادة التي تعتنقها يا عزيزي ، قد تطورت إلى تظاهر بالشهادة .

قال ميرزا أسد الله : ألا فليفض فمي .. لكنى الآن أفهم لماذا يستسلم أحد للشهادة ، لأنه يقوم بلعبة ، ولا يستطيع أن يفر ، فيكون أن يبقى حتى يتحمل عواقب الخسارة ، عندما يهرب إنسان من شيء ما أو من مكان ما ، فإن هذا يعني أنه لم يعد يتحمل بعد وضع ذلك الشيء أو ذلك المكان ، وأنا أريد أن يكون لدى شيء ، وبالنسبة لي هذه هي بداية الإمتحان !!

قال ميرزا عبد الزكي : ها أنت ترى أنك تقوم بتقليد الشهداء يا عزيزي .. ألا يكفي في النهاية كل هذا العزاء الذى قمنا به في موت الشهداء ؟! نترك إمكانات العمل للآخرين ، ونقنع نحن أنفسنا

بالتظاهر بالشهادة . عزيزى : في هذا يكمن السبب في أن أعمالنا كلها دائما عرجاء .. هل نسيت أنك كنت تقول ينبغي أن يكون لدينا خطة مسبقة ؟ حسنا يا عزيزى : هذا الفرار هو أيضا خطة ، إنه استعداد للمرحلة القادمة ، نوع من المقاومة يا عزيزى .

قال ميرزا أسد الله : لا ، الفرار ليس مقاومة ، هو إخلاء للميدان ، ومن يفر يسلب من نفسه الحيثية ، حتى في لعبة من الألعاب ، إما أن يكسب أو يخسر ، وليست هناك نتيجة ثالثة ، ليست صفقة سوق حتى يتوسط فيها سمسار ، هي صفقة الحق والباطل !

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، ها أنت لاتفتأ تتحدث بحديث الشهداء بشكل سيء .. أصدقت ؟

قال ميرزا أسد الله : إذن كنت تظن أننا غارقون في لعبة ؟ هل تذكر كم كنت أنت عجولا وكم كنت أنا أتريث ؟ ثم : إلى أين تريدون الفرار ؟ ماذا تظن يا ترى لون سماء الهند ؟ إن هذا الصوت الذى يصل من بعيد هو صوت الطبول !!

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، قلت أننا ذاهبون لكي نجهز أنفسنا للمقاومة التالية .

قال ميرزا أسد الله : ولا هذا أيضا ، لقد انتهى أمركم تماما ، كانت بالنسبة لكم مغامرة وانتهت ، لكنها بالنسبة لي بدأت لتوها ، وعندى أن أعظم أنواع المقاومة في مواجهة الظلم تأثيرا هي الشهادة ،

بالرغم من أنني لا أملك الجدارة بها ، فما دامت الحكومة ظالمة ، ولا يتأتى من أيدينا عمل ، فإنه يمكن الاحتفاظ بالحق حيـــا في ذاكرة الشهداء فحسب .

قال ميرزا عبد الزكي : ها أنت ترى يا عزيزي ، لقد اعترفت في النهاية ، والخلاصة أن كل ذكريات الحق هذه والتي دفنت مع أجساد كل هؤلاء الشهداء .. متى ساعدت في القضـــاء على الظلم يا عزيزي بحيث تريد الآن تقليد الشهداء ؟

قال ميرزا أسد الله : بمجرد أن تحركنا أنا وأنت آملين ، كان الشهداء أمام عيوننا ، كنا نريد أن نحفظ تراثهم ، أتعلم يا جناب السيد حقيقة أن الشهادة لا تكف يد الظلم عن أرواح الناس وأموالهم ، لكنها تسلب سيطرة الظلم على أرواح الناس ، فتسيطر عليها ذكرى الشهداء ، وهذا هو نفسه حمل الأمانة ، يستسلم الناس لسلطة الظلم ، لكنهم لا يسلمون أرواحهم .. هذا هو تراث الإنسانيـــة ، وما تتوارثه الأجيال خارج كتب التاريخ المتعفنة ، هذا هو فحسب .

قال ميرزا عبد الزكي : في النهاية يا عزيزي ، إذا كانت مقاومة الظلم في حد ذاتها هدفا فحسب ، فهناك كلام ، لكن المقاومة يا عزيزي ليست هدفا ، القضـــاء على الظلم هو الهدف .

قال ميرزا أسد الله : وأنت ترى أنه لم يحدث ، برغم أننا أيضا كنا نملك المدافع.

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، لدى ألف عمل ، الخلاصة ، هل ستذهب أم لا ؟

قال ميرزا أسد الله : لا .. سأذهب من الغد إلى باب المسجد الجامع فحسب

قال ميرزا عبد الزكي : إذن يا عزيزى فقد قررت أن تضحي بنفسك من أجل اللاشيء والهباء ؟ هـه ؟

قال ميرزا أسد الله : لا ، بل أريد أن أعوض حياتي .

قال ميرزا عبد الزكي : أنت يا عزيزى ببقائك تضيع حياتك .

قال ميرزا أسد الله : لا .. أريد أن أمتحن نفسي مرة أخرى ، سوف أبقى ، وأعطي لحياتي معنى .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، معنى حياتك طفلاك .

قال ميرزا أسد الله : لا ، لو استطعت أن أقدم شيئا في مقابل كل هذه النعم التي مُنحتها دون استحقاق فقد أعطيت لحياتي معنى ، الأطفال هم التواصل الطبيعي للحياة لا المعنى الإنساني لها ، البذرة التي سقطت من شجرة لا بد وأن تخضر ، لكنى لست شجرة ، ولم أعش كما يعيش النبات ، وبدلا منى كان أى شخص آخر يستطيع أن يكون أبا لهذين الطفلين أو لأى طفل آخر ، لكن لا أحد قط يستطيع أو استطاع أن يصبح بديلا عنى ميرزا أسد الله كاتب العرائض على باب المسجد ، هذا هو الحمل الذى كان على كتفي فحسب

لا أستطيع أن أتركه وسط الميدان وأفر ، بل ينبغي أن أبلغ به المستقر .

قال ميرزا عبد الزكي : يا عزيزى ، لقد قضيت عمرا أنظر إلى يدك ، قضيت عمرا أتحسر غيرة منك ، لكن في هذه الخطوة الأخيرة لا أستطيع أن أتبعك ، إنك تعاند بشكل سيء يا عزيزى .

قال ميرزا أسد الله : في المقابل ستستريح يا جناب السيد ، سوف تبقى وحدك مع نفسك ، قالوها في النهاية : أنا أنا وأنت أنت ، وسوف تقر بالا أيضا من ناحية زوجتك ، أوصها فحسب ألا تترك عمل نسج السجاد ، غل زرين تاج بدورها تستطيع أن تربي الطفلين في ظل السجاد ، ثم مر على مشهدى رمضان وحسن عازف الكمان ، وادعهما ، علهما يأتيان معك .

وعند هذاالحد انتهى كلامهما ، وإلى أن وصل ميرزا عبد الزكي إلى البيت ظل يبكي ، وطوال ذلك اليوم بينما كان أهل المدينة منهمكين في المشاجرات على الخبز والمؤن والوشم الذى على أيديهم ، عقد الدراويش في الخفاء أحمالهم ، وحملوا البارود المتبقي ، وعطلوا المدافع وأعدوا البغال والخيل ، واختاروا أفضل البنادق وحطموا ما تبقى منها أو أحرقوه . وعندما خفت الأقدام في المدينة ، ركب خانلرخان بعزة واحترام جوادا ومعه مائة وعشرون امرأة من الشابات وضعهن في الهوادج ، وهربوا من البوابة الشرقية للمدينة بدون ضجة أو صخب ، لكن نيران المناقد التي كانت تشتعل أسفل المدافع المعطلة ، ظلت مشتعلة إلى منتصف الليل .

في صبيحة اليوم التالي خرج أهل المدينة بقيادة ميزان الشريعـــة والعمـلاء السريين في المدينة ، عـراة الرؤوس حـفـاة الأقدام ، يضعـون المصاحف على رؤوسـهم ، والخـبـز والملح في الصـوانـى ، خرجـوا من بوابات المدينة وذهبوا لاستقبال جيش الحكومة . كان قبلة العالم لا يزال نائمـا ، واسـتـيقظ من النوم على ضـجـيج الأهالي ، واسـتـقـبل مـيـزان الشريعة ومعه سبعة من التجار الذين كان قد أُفرج عنهم من السجن صبيحة نفس ذلك اليوم ، وهنأ ميزان الشريعة ودعا وأبدى تعاطفه على خانلرخان . وركب قبلة العالم دون أن يفطر ودخل المدينة في أبهة وعظمة . حقيقةً أن الدراويش كانوا كلهم قد فروا ، لكن تعال وانظر مـاذا جرى : حـركـة الاعـتـقـال على قدم وسـاق ، ونهب مـائة بيت من بيـوت المدينة ، ومعظمها بيوت أولئك الذين كانوا قد هربوا عند محاصرة المدينة ، وذبح سـبـعـة أشـخـاص بلا سـبب ولا أسـاس بزعم أنهم من زعـمـاء الدراويش أمـام موكب قبلة العالم ، وقبض على ألف شخص وأخذوا إلى السـجن ، وفي اليـوم التـالي شنق سـبـعـة من المساجين أمـام بوابة القلعـة ، ووضـع الشمع المشتعل في جراح سبعين منهم أو حشوا بهم جلود البقر وخاطوا عليـهم أو صبوا الزجاج المذاب في عيونهم أو وضـعوا في قزانات مـاء مـغلى ، كمـا تقرر نفي سبعمائة شـخص ، ومن استطـاع ممن تبقوا أن يدفع الفدية أطلق سراحه ، وكل من لم يستطع أن يرشو أحدا ظل قابعا في غياهب السجن .

يا أحبـــــاء القلب .. ذهب مع الدراويش من أبطال قصتنا ميرزا عبد الزكي وحسن آقا واخوته ، أمـا مشـهدى رمضـان العلاف الذى كان

قد شبع من الحياة ، ولم يكن مستعدا للذهاب مع الدراويش فقد قبض عليه ، وفي اليوم التالي وضع الشمع المشتعل في جراح في جسده ، أما حسين عازف الكمان الذى ظل طوال عمره يعد مجالس اللهو وساحات القتال فقد بقي ، وقبض عليه ، فقطعوا يده الباقية بالطول ، ثم شنقـــوه منكسا . لكن خان دايي استطاع أن يخرج عن كل أملاكه في يوم واحد ، حتى استطاع بمساعدة كبراء المدينة ورشوة ميزان الشريعة ومأمور المخفر والعسس والمعاون أن يسجل إسم ميرزا أسد اللـــه في قائمة المنفيين . ولأحدثكم أيضـــا عن درخشنده هانم التي لم تذهب قط إلى حريم خانلرخان ، كما خلصت منزل الحاج ممرضا من النهب على أساس أنه مشغل سجاد ، وقد تطور عملها بحيث أن السجاد من نسيج يدها ذهب حتى بطرسبرج والصين ومنشوريـــا . أما زرين تاج هانم وطفلاها فقد نقلوا أثاث بيتهم وذهبوا إلى منزل خان دايي . وكانت الجثث لا تزال فوق أعواد المشانق ، وأزهار الشقائق التي أطلت برؤوسها داخل حقل البرسيم الموجود تحت أشجار التوت المقطوعة في أطراف المدينة تتماوج ، أن حدث ذات يوم أن خرج خان دايي مع حميد ، ومشيا يحملان سترة ميرزا أسد الله الجلدية وحذاءه ذا الساق وعصاه المقوسة ذات العقد حتى باب السجن ، فلبسها ميرزا أسد الله ، وانطلق إلى الصحـــراء .

(٩)

بقية قليلة

....لنعد الآن إلى قصـــة السيد راعينا الذى صار وزيرا بتلك الطريقة ، ومات بتلك الطريقـــة .

يا أعـــزاء القلب .. رأيتم أن أولاده قد عادوا إلى المدينة ، ولما لم يكن يتأتى من أيديهم أى عمل ، اشتركا معا وأصبحا من أصحاب المكاتب ، لكن لما كان الشريك -- وإن كان طيبا -- ليأخذه الله عنده ، فإن الأخوين لم يتفاهما معا ، خاصة وأن إدارة كتاب في ذلك العصر والأوان لم يكن عملاً ذا قيمة ، وبشق الأنفس كان يمكن عن طريقه تدبير عيش أسرتين ، فكان أن باع أحد الأخوين نصيبـــه إلى أحد الغرباء ، وذهب إلى أقرانه في اللعب أو معارفه الذين كان قد تعرف عليهم إبان حياة أبيه في البلاط ، وأنفق كل ما كان قد حصل عليـــه من بيع نصيبه في الكتاب ، ورشا هذا وذاك حتى صار في النهاية من كتاب الديوان ، وبعد الترقي في المراحل والدرجات وصل في النهاية إلى

منصب ملك شعراء البلاط ،. لكن ذلك الأخ الذى كان أكثر تحملا قد واصـــل شغله في الكتاب وواصله وواصله حتى اشترى نصيب ذلك الرجل الغريب أيضـــا ، وصار صاحب كتاب شهير في المدينة . وشاء القضاء أن رواة الأخبار هكذا رووا أن قصتنا هذه قد كتبها ميرزا عبد الزكي الذى ذهب فى رفقة الدراويش إلى بلاط الهند حيث كان المجوسي واليهودى والمسلم والنصراني يعيشون معـــا حول سفرة واحدة ، وبينما كانت تلك المذابح تجرى بين الشيعة والسنة ، كانوا هم يدعون السلام الشامل . وقالت جماعة أخرى من نفس رواة الأخبار ، بل كتبها ميرزا أسد الله نفسه بعد عشرين سنة من السير والسياحة كدرويش سيـــاح ، واحتجوا على هذا بأنه قد ورد في آخر إحدى نسخ القصة غير الأصيلـــة : " أيها الإبن الحبيب ، إذا كنت تتذكر ، فقد كنا ذات يوم نتحدث عن الإرث والميراث ، وقلت لك أمور لا أظن أنك قد فهمتها ، على كل حال : هذه القصةِ ميراث منى لك ، واعلم أيضـــا أن أبي كان قد ترك لي ميراثا ، لكن من أسف أنني لم أستطع تركه لك ، كما أنه لن ينفعك ، أتذكر تلك السترة الجلدية والحذاء ذا الساق والعصـــا التى كانت أمكم قد ضاقت منها تماما ؟ أجل يا حبيب أبيك ، تلك الأشياء كانت ميراثا من أبي لي ، وهي الآن تنفعنـــي . " .

لكن بالنسبة لنا ، ولسنا من رواة الأخبـــار ، ولا من ناقلي الآثـــار ، ما الفرق بالنسبة لنا في من كتب القصـــة ؟ وهكذا نمن على قصتنا بمسك الختام ، حتى نشفق قليلا على حال ذلك الغراب ، الذى لم يصـــل إلى عشه حتى الآن .

تمت

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــل



جلال آل أحمد

نون والقلم

نون والقلم رواية تقوم على حادثة جرت فى عهد أحد ملوك إيران لم يحدده الكاتب، وعلى ثورة مذهبية من التوراث التى يحفل بها تاريخ إيران القديم والمعاصر على السواء .. إلا أن استقراء وقائع الرواية وأحداثها مع عودة إلى تاريخ إيران، يثبت وقائع مشابهة فى عهد الشاه عباس الصفوى الأول أو الكبير الذى حكم إيران فى الفترة ما بين 1587 - 1636م، وبالرغم مما يروى عن هذا الملك من أمجاد، وأنه كان أعظم ملوك الدولة الصفوية، إلا أن جلال آل أحمد يرى أن نكبة إيران الحقيقية تنبع من مزج الدين بالسياسة وغلبة المذهب الشيعى منذ العصر الصفوى. والخافية المذهبية للرواية تتحدث عن مذهب النقطوية الذى ظهر فى عهد الشاه عباس، وذلك بالطبع دون ذكره على وجه التحديد ..

ويعتبر جلال آل أحمد "نون القلم" نفسه، لكنها ليس... أولا وأخيرا فى لغتها وفى مادتها ومحتواها من الجماهي... أحلامهم بالسنتهم، ومن ثم لجأ إلى شخصية الراوى فى ... يكن هناك بد من وجود راوٍ يعبر عن الجماهير وتختفى خ... الكاتب تماما..

تصميم الغلاف: عماد حليم